بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طاقية الإخفاء

رواية

طاقية الإخفاء

الدكتور

محمد حسين السماعنة

الطبعة الأولى

2021م

دار كفاءة المعرفة

طباعة • نشر • توزيع

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2021/1/120)

813.03
السماعنة ، محمد حسين
طاقية الإخفاء/ محمد حسين السماعنة.- عمان، دار كفاءة المعرفة للنشر والتوزيع،2021.
( ) ص
ر.إ: 2021/1/120
الواصفات:/الروايات العربية// الأدب العربي// العصر الحديث

ردمك : ISBN:978-9923-39-026-9

Copyright ©

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

All rights reserved. NO Part of this book may be reproduced, stored in aretrival system, or transmitted in any form or by any means, without prior permission in writing of the publisher.

دار كفاءة المعرفة
طباعة • نشر • توزيع
kafaat.almaerifa kafaat.almaerifa@gmail.com
+962796803670 +962799291702 +962796914632

ابصار ناشرون و موزعون
المحترفون الاردنيون لصناعة برايل
ibsarBraillejo ibsarbraillejordan@gmail.com
+962796803670 +962799291702 +962796914632

دار أمجاد للنشر والتوزيع
طباعة • نشر • توزيع
daramjadbooks amjadbooksdp daramjadbooks
dar.amjad2014dp@yahoo.com daramjadbooks@gmail.com
للتواصل و الإستفسار: Tel:+9624652272 Fax:+9624653372

إهداء

لعروة التي تحلم بالشمس

يوم النصيحة

اليوم هو الخميس السابع من آذار من سنة الجلجلة، كان الزعيم فرحا ضاحكا يكركر ويضرب كرسيه بيديه من شدة انفعاله؛ فقد كان نديمه الطويل الأشقر يتقن استدراج ضحكاته واستدرار هباته، وكعادته في نهاية كل جلسة تنحنح الزعيم مرتين، ثم نظر إلى مستشاره وقال وهو يحاول تقطيع ضحكة احتلت أركان جسده: انصحني يا حضرة المستشار.

فقال المستشار بارتباك: يا سيدي، لاعبهم، والعب معهم، وأشغلهم، وشاغلهم، وأرخِ لهم الزمام الذي تربطهم به، وإذا ضربت فأوجع، وإذا خطبت في الناس فأسمِع، ولا تَلق الناس إلا باشاً مبتسما، وقرِّب إليك في العلن ما يقربونه هم ويودونه في السر والعلن، يا سيدي، ولكي يدوم سلطانك ويسلم من الفتن عرشك،ولا يهزه متمرد؛ اعمل بما هو آت: اجعل في كل شهر لهم ساعة حرة، وفي كل عام اخلق لهم مناسبة للاحتفال، ولا تكفف عن تذكيرهم بالأشباح المحتلين، وأعط الرياضات المائية اهتمامك، وامنح الرياضات الشعبية رعايتك، واحضر المسابقات والمبارزات، وأعطهم من مالهم ليمدحوك، وقلدهم أوسمة كثيرة ليعبدوك، ولا تبخل عليهم بالألقاب فإنها تؤلف القلوب حولك... يا سيدي، وفرِّق تَسد، وخذ وأعطِ؛

فقد قيل"من دِهنو قَلِّيلو"، ولا تترك أيدي الأطفال، والتصق بوجوههم الباسمة، وضع بينك وبين الرعية حجابا كثيفا لا يشفُّ ولا يكشف، ليغدو لقاؤك حلماً، ومحادثتك طموحاً، ومصافحتك أمنية، ولا تنس أن تقلل من كلامك وظهورك، وتختار لباسك المناسب لكل طلة ومشوار.

صحيفة الاقتطاع

قرار زعيم الجزيرة رقم 124\46 لسنة الموج الأحمر

بشأن تخصيص ربع مساحة بيوت الجزيرة لغايات دفاعية وقائية.

قرار زعيم الجزيرة

بعد الاطلاع على دستور الجزيرة، وعلى القانون **رقم 5/ 14** لسنة الجلجلة، وعلى **الوثيقة المجتمعية الأولى** قررنا ما هو آت:

1- يفصل مواطنو الجزيرة 25٪ من مساحة بيوتهم، ويخصِّصون لها مدخلا خاصا.

2- تتكفل الجزيرة بصيانة المساحات المفصولة، ودهنها باللون الأحمر.

3- يحمي مواطنو الجزيرة هذه المساحات المقتطعة بدمائهم.

4- يغلق زعيم الجزيرة نفسه هذه المساحات وفق مراسم احتفالية.

5- يمنع فتح هذه المساحات بعد أن يغلقها الزعيم ويؤكد إغلاقها بالشمع الأحمر.

عاشت الجزيرة حرة أبية وليخسأ المحتلون.

زعيم جزيرة الذمار

اليوم المُغلق

كان يوم الخميس السابع من شباط من عام الجلجلة يوماً لن تنساه الجزيرة فهو اليوم الذي صدر فيه عن ديوان الزعيم أمرٌ باعتماد يوم الخميس من كل أسبوع يوما مُغلقا في الجزيرة.

وجاء في البيان الصادر عن ديوان الزعيم ما يأتي:

أيها المواطنون الكرام، يا أهل جزيرة الذمار الكرام نحن الزعيم رئيس الهيئة العليا لإدارة الجزيرة، ونظرا للأخطار المحدقة، وكثرة الأعداء الذين يحاولون احتلال الجزيرة الشامخة الأبية الصامدة ارتأينا ما يأتي:

يكون يوم الخميس من كل أسبوع يوما مُغلقا يلزم فيه المواطنون بيوتهم وهم بلباس الجزيرة التقليدي استعدادا ليوم الفداء معركة المعارك مع الأعداء، ونرجو أن يكون يومًا يعزز صمودكم على هذه الجزيرة أرض الآباء والأجداد، على أن يبدأ من الساعة الخامسة صباحا حتى الساعة الحادية عشرة ليلا، ويلتزم فيه المواطنون بما يأتي:

1- يصومون فيه عن الكلام لفظاً وإشارةً وكتابة أو إيحاء، فلا يتكلمون ولا يتشاورون ولا يتواصلون ولا يتغامزون، ولا يتلامزون.

2- يطفئون الأنوار كلها، ولا يشعلون نارا، ولا سراجا، ولا شعلة، ولا يحركون دابة من مكانها إلا بعد انتهاء ذلك اليوم.

3- يلبسون جميعهم في هذا اليوم اللباس التقليدي، ولا يخلعونه ولا يستبدلونه، ولا يغيِّرون فيه حتى انتهاء اليوم المغلق.

4- يخفون عن العيون كل شيء لونه أزرق أو فيه زرقة.

5- يُمنع الرجال في هذا اليوم من لبس الملابس الداخلية المخيطة، وغير المخيطة، وأما النساء فيلبسن لباسهن البحري المطرز الموشّى.

6- يمنعون في هذا اليوم من أكل اللحوم كلها، فلا ذبح، ولا سلخ، ولا قتل في هذا اليوم.

7- يخفون عن الأعين الأقلام والدفاتر والكتب والأوراق.

8- يقفون فيه على عتبات بيوتهم بلباس الجزيرة التقليدي من الساعة الخامسة مساء حتى الساعة السادسة مساء لاستقبال الزعيم بالنشيد الوطني لجزيرة الذمار، الذي وجب أن يكون محفوظا في الصدور لتحية الزعيم والترحيب به:

أنت أنت يا غالي

يا زعيم

يا رافعنا للعالي

يا زعيم

غالي انت شو غالي

يا زعيم

افتح ايدك حنيها

يا زعيم

وسلِّم علينا بيها

يا زعيم

أنت أبوها وسميها

يا زعيم

واحنا مشينا معاك

يا زعيم

برواحنا احنا نفداك

يا زعيم

يا زعيم

عاش الزعيم

عاشت جزيرة الذمار

وإنه لصبر حتى التحرير

همهمات

وفي كل يوم مغلق كانت عروق تستمع لموشحات تذمّرية قادمة من كل مكان على شكل وشوشات، أو همهمات، أو تمتمات، أو فحفحات. ولعل أباها كان أكثر هؤلاء المتذمرين نشاطا فقد كان تَزنُّره بحزام البحر الصدفي يوجعه، ويتعبه، فيشرع بشتم الحزام وآله ورجاله بشتائم حفظتها عروق عن ظهر قلب؛ فما إن يشرع أبوها بشتيمة حتى تكملها هي عنه، ويشاركها إخوتها في ذلك وكأنهم ينشدون أنشودة مدرسية.

كانت عروق ترى أباها وهو يختال بزهو بلباس البحر في غرفتهم الوحيدة المطلة على الشارع الرئيس، ويقف بغضب دفين عند جدار أحمر يستولي على مساحة واسعة من بيتهم.

قالت لي عروق: وأما وقوف أبي معنا على عتبة البيت بلباس البحر فكان له ما له من تداعيات على نفسيته وبخاصة حين يطل الزعيم بعربته التي تجرها الخيول، ويبدأ أنشودة التحية المموسقة. كانت تلك الوقفة تبعث فيه نشوة غجرية وحشية يحركها نسيم البحر، ويقويها ذلك الوشي المعتّق الذي ازدانت به ملابسه؛ ملابس أهل البحر التي ورثها عن أبيه.

كانت عروق ترىٰ أمها وهي تحاول لملمة وشاحها البحري البالي الذي كان هدية زواجها، أو وهي تنظر برقة شفيفة وإشفاق إلىٰ عيني زوجها المغرورقتين بالدموع، عينيه اللتين شرب منهما التعب والدهر ما شربا.

كانت عروق تحب اللون الأزرق، وكثيرا ما سألت أمها لم؟

: لم يمنعونني من لبس ما أحب، لم يا أمي يمنعونني من لبس الأزرق، لم تخفون لعبتي الزرقاء، ووسادتي الزرقاء؟

ولم تتوقف أسئلة عروق عن اللون الأرزق، وتطورت أسئلتها كثيرا، وتعددت مع الوقت فصارت تسأل عن كل ما هو ممنوع وترفضه وتجاكره.

وكانت أمها دائما توشوشها بحب وخوف وقلق: يا عروق بعدين، بعدين بشرح لك، اليوم ممنوع نحكي، أترين تلك المنصات والحبال هناك؟ هذه أعدت لمعاقبة كل من خالف التعليمات، سيجلدونهم مئة جلدة، أتحبين أن أجلد، أترغبِين برؤيتي هناك علىٰ المنصة ؟!

كانت تلك العبارات كافية لتسكت عروق، بل لتخرس كل ما فيها من أسئلة.

التزمت جزيرة الذمار تعليمات اليوم المغلق خوفاً ورهبة وطمعا، وكانت تخرج كلها بلباس البحر لتحية الزعيم وهي تلبس ثوب الخوف

والرهبة، وتلبس عباءة الماضي بصمت وهي تبتلع القتام والسكوت على الموجع المبكي...

وظلت وشوشات الصيادين وهمسات أمها تتردد في نوافذ روحها من نوافذ الجيران، ومن خلف الجدران.

" متى ستشتري لي لباس الحوريات لقد مللت الوقوف كالرجال على عتبة البيت؟"

"يا زوجي الحبيب لا تخش شيئا فأنا أستر هذه الثقوب بيدي، فلا تخف ولا تأبه "

"يا ويلي "

" ساعة كاملة حتى يأتي الزعيم الهبر "

"أمي، أنا لم أحفظ النشيد؟"

"حركي شفتيك وحسب، فهو حين يمر لا يسمع إلا صوت أنفاسه ولن يلحظ أنك لا تحفظين النشيد".

يوم آخر

وإلى بيت آخر من بيوت الجزيرة التي قسمها الشارع الرئيس إلى قسمين بلا ظلال، كان جذور يمشي عندما فاجأه صوت طويل له ركبتان من شوك وقدمان من نحاس تعلق بهما رأس كرأس زرافة.

سأله الصوت: من أنت؟

فأجابه بغضب: أنا جذور!

وكان قد قال للجمهور الضاحك الذي اجتمع في الساحة ليسمع خطبته:

...وعندما سرق اللصوص قصيدتي النونية التي تغنيت بها بالسفن والبحر والصيد قبل يوم النسيان الأكبر كنت أمشي، وعندما ماتت أمي وهي تنظر بغضب إلى الغرفة الحمراء التي احتلت منزلها وقيدت أنفاسها كنت أمشي، وعندما قطف أولاد الحارة الوردة الوحيدة التي أحبها كنت أمشي، أيها الناس **ولدنا لنمشي لا لنراقب الدروب"**.

وعندما توقف أمام مدرسة البنات الثانوية وأزاح الستارة عما خطه على جدران المدرسة رأى أن العبارات ما زالت كما هي نضرة ندية:

أحبك يا أمي

ازرع زيتونك الآن

بلادي بلادي بلادي

فرح كثيرا وصار يقرأ العبارات بصوت عال، ثم صمت فجاة أمام بيت يقول:

ما لم تقم بالعبء أنت فمن يقوم به إذن؟

حاول أن يكشف عن العالم المختبئ خلف يدي هذا البيت، وفكر بالاحتمالات كلها، وعددها أمام خط الثلث الذي حملها...

قال له صوت تدثر بلثام القسوة والقوة، ووجهه وجه جرذ نحيل له ساعدان ورأس ملطخ بشوارع الجزيرة: من أنت، ومن أين أتيت؟

ولكن جذور لم يجبه، ولم ينظر لذلك المتدثر بعصا القوة والبطش، وأشار إلى الملابس المنتشرة فوق عينيه.فعاد السؤال إلى الرنين: من أين أتيت؟

قال جذور باستهتار: نسيت!

فقال له الصوت:أقول بأنك كاذب.

فضحك جذور، وهز رأسه متسائلا مستغربا مستهجنا ؟

فقال الصوت بغضب: ألم تسمعني، أقول بأنك سارق؟! أتضحك وأنت سارق؟

حروف كثيرة هربت من لسان جذور، فكيف يدافع عن نفسه أمام هذا المعنَّى بعبادة الزعيم الهبر؟! إنه جذور بن عبادة بن عروة بن الشنفرى، كيف يقنعه أنه ابن هذه الجزيرة التي يتحيفها الأعداء، ولم يطل حديثه مع نفسه فقد كان هتاف الغبار المكدس فوق الطريق يعانق وجهه ومنخريه في طريق ملئ بالأصوات!

توارى جذور بجسده المثخن بالجراح عن عيون المارة...

كان يرى الشارع ضئيلا نحيلا على سيف من الألم، أضاع بعض الكلمات، بحث عن أشياء يشعر أنه فقدها تفقد عينيه وأذنيه وكفيه وقدميه...كان كل شيء في مكانه، لكنه كان شعر أن شيئا ما ينقصه...

" لعلي أضعت حذائي على شرفة ما، أو في شناشيل البيوت المطلة على البحر، أو على الشاطئ في صباح جميل هناك في لحظة ناعمة... لعلي قطفت فكرة يانعة هناك وأضعت بعدها حذائي..

"وماذا هناك؟ وها أنت وحدك في الشارع الذي يقسم الجزيرة بين سيفين بلا حذاء يقيك بقايا الطريق".

سأمشي لأني إذا تهت ستحزن أمي، وأين أروح؟!

تواريت يا جذور بين قوارب الصيادين كظل فراشة، وبين الأشرعة الملقاة على الشاطيء الساكن الذي يعبث به الليل ألقيت حروفك كلها...

سحب يده التي أدمتها أنامل السكون اليابس على شاطئ الجزيرة المطل على قصر الزعيم وصار ينادي: بلادي بلادي...

وحين اجتمع الناس حوله وسألوه أسئلة كثيرة لا طعم لها، قال لهم: أضعت طريقي، أضعت الكلام الطويل عن البرق والرعد، أضعت يدي، وصهيلي، وغنائي. يا قوم، أضعت حتى حذائي!!

قالوا له: لعل كلاب الطريق التقطته!

وسرعان ما كانت العصي تحتفل بمسامات جسده تنهشها وتبعثرها

- ما اسمك؟

- جذور

- هل.....؟

- لا لا.... لأني....!

- لم.....؟

- لأني....!

- كيف.....؟

- لا أدري...والله لا أدري؟

يضحك الواقف خلف أنيابه وسوطه، ثم يحرك إصبعه فتعتصر الأيدي جذور بن الشنفرىٰ

كانت الغرفة قاتمة مليئة بالأيدي والعيون والسياط، والأفواه العابسة، والوجوه اليابسة التي ناولته قائمة من النواهي والمحرمات والممنوعات.

حمل جسده المنهك المحطم، وسار في الطريق الذي يقسم الجزيرة إلىٰ جهتين يتحيفهما الأعداء: مربع القصر وظلاله، ومربع المتعبين الذين احتلت عصا الزعيم غرفات حمراء في بيوتهم لينام الخوف بين أحضانهم...جرفت جذور الخارجَ إلىٰ النور ممراتٌ قاحلة جافة عبث بها غبار الأيام، وعفن ساعات صدئة جرُّوه فيها من عينيه وناصيته، وسحبوه من رجليه، وألقوه في ظلمات الصمت والقلق والانتظار خلف قضبان من يباس وموت وصمت...

سألته أمه: هل أنت بخير يا ولدي !؟

أجاب بمهارة صياد يخفي خيبته: نعم، نعم يا أمي أنا بخير!

ولكنه يعرف، والجزيرة كلها تعرف أن جذور لم يعد بخير

قال لهم:

"ثم انشق الباب عن سوط وصوت وبدأ الجو والمدى يأكلان مني قطعا لحمية،وكان جسدي يموج بالألم، ويخرج أنينا دمويا من عيني ومن شفتي ومن بين مسامات جسدي..

قال صوت باستهزاء جاف خشن: هذا رقم 16 اعتنوا به وأكرموه !

" أنا السجين رقم 16، وهذه عيون كثيرة تنخزني الآن، وأجساد ذابلة مترنحة كثيرة تتجه بعيونها نحوي، وكلمات صدئة مخادعة منتنة كثيرة تزحف نحو عيني، وحروف مبعثرة كثيرة تلتطم بناصيتي بصفاقة واستهتار واستعلاء.

"سحبوك نحو الزنزانة رقم 2..وألقوك في زاويتها الغاضبة، وهناك بقيت صامتا تنظر في كل الاتجاهات المقلقة...سكبت عينيك على الأرض، وجلست القرفصاء على ريح من فراغ وخوف وهمٍّ "

سأل صوت من رمضاء وصوان: أنت رقم 16؟!

أجبته بارتباك: نعم أنا رقم 16، نعم رقم 16 !

- اخرس يا بن....احفظ ما سنقول لك، ولا تنسَ منها حرفا...إياك....ممنوع أن...احذر أن...

رقم 15: رقم 16 رقم جميل وجذاب وهادئ، كم تمنيت أن يكون لي رقم زوجي مثلك!

رقم 17: رقمك يجذب الروح يا 16، ويعطي للحياة معنى الأمل !

رقم2.: هل معك وساطة يا 16؟

رقم 19: أنت محظوظ يا 16 أو...!

...وامتزجت في عيني جذور الأيام، وتساوت اللحظات، وتوقفت أمام شفتيه الكلمات تستعرض ماضيها،ومرت عليه الليالي مستهزئة شامتة، وألقت عليه أثقالها، وارتخى قلبه من التعب والأرق على لوحات صدئة على الجدران، وصار يقلب نبضاته، ويربت على صور كثيرة تأبى أن تفارقه ليعيد تشكيلها وتجميعها لكنها كانت تظل محاطة بالنقص والعوز والغموض...

وها هو الآن في الشارع الذي يقسم الجزيرة إلى نصفين وجهتين يتحيفهما الأعداء: شمالية وجنوبية.

كانت يدا أبيه باستقباله، وبعينيه الدامعتين ترفق في عتابه، وضمه إلى حضنه.

- أبي! يا أبي، أنا لم أفعل شيئا! لم أقل شيئا، هم الذين التقطوني، وسحبوني، ثم جروني، ثم رموني بين أنياب لا تعرف لغتي، ولا تفهمني، ولا تعرفني...

يوم الخنق

لم يعرف أحد من أين جاءت رائحة السمك المتعفن الممزوجة برائحة الموت البشري واحتلت الجزيرة كلها، ولكن أهل الجزيرة كلهم يذكرون كيف غطت رائحتها الأصوات والألوان وأربكت الدقائق الثقيلة المثقلة فوقها، كلهم يذكرون كيف كانت تجلدهم بقسوة مربكة، حتى هاموا في شوارع المدينة كالسكارى يبحثون عما يقيهم شرها.

قالت أم عروق بثبات وثقة: يا عروق، ضعي فوق لثامك أوراق الريحان هذه فهي ستساعدك على طرد الرائحة القاتلة بعيدا عن نهارك هذا!

قالت عروق وهي تصارع تلك الرائحة بقوة وثبات: سأفعل يا أمي سأفعل!

ومع أنها كانت تعرف أن الرائحة كانت أشرس من أن يطردها الريحان، قالت لها: يا أمي وأين الريحان الذي لك!؟

فوضعت أم عروق كفها على رأس ابنتها، وقالت: هي معي، يا عروق قاتلي معي لنبقى أحياء؛ فلن يعيد الأرضَ الموتى! كانت عروق تنظر إلى عيني أمها وهي ترسلها في السماء، وكأنها تبحث عن يد تنتشل عائلتها من هذا العذاب، وظلت تتابع أمها بحنان وحب وفخر وهي تقول لها: يا

عروق، أترين هذه الجموع المتدافعة المتنافرة في الشارع الرئيس، أترينها كيف تتخبط وتتماوج، وتسير على غير هدى؟ لو أنها تأنت قليلا وفكرت في طريقة للتأقلم مع الرائحة لسهل عليها هزيمتها. ياعروق، **لا يمكننا مواجهة الصعاب بالموت أمامها**.

ثم التفتت إلى عروق التي تلثمت بقطعة حمراء من القماش المنقوعة بالريحان،وقالت بحدة انظري إلى شوارع الجزيرة أترين هذا الارتباك الذي سيطر على شوارعها، أترين كيف يسير الناس فيها بلا هدف ويتصارخون ويتدافعون ويقتتلون ؟ أترين كيف يواجهون بالقلق والخوف والارتباك هذا الفاتك الجديد؟!

قالت عروق وهي تمسك بطرف ثوب أمها: يا أمي، اللثام نافع، لو أنهم تلثموا مثلي ومثلك ما استطاعت الرائحة إرباكهم !

ضحكت أم عروق وهي تمسح على شعر ابنتها وقالت: نعم يا عروق لو أنهم !ثم أمسكت بيدي عروق الصغيرتين وقالت: هل حدثتك عن ليلى والذئب ؟

قالت عروق بدهشة: لا لا، هلا حدثتني عنهما !

قالت أم عروق بحماسة وهي تحرك يديها وعينيها وتحاول السيطرة على منابع الغضب الجسدي من الرائحة النتنة القاتلة:هي حربنا يا عروق مع المحتل، منا من سيحاربه بقلمه، ومنا من سيحاربه بسلاحه، وليلى التي سأحكي لك عنها حاربت المحتل بذكائها.

كان يا ما كان في سالف العصر والزمان فتاة اسمها ليلى، تسكن في بيت صغير مطل على شارع واسع يقسم مدينتها قسمين.

قالت عروق بسرعة: مثل بيتنا !

ابتسمت أم عروق ثم تابعت حكيها: وفي ليلة من الليالي الصافية المقمرة، وبينما كانت ليلى وأخواتها يلعبن على الأرجوحة رأت ليلى البدر، فقالت لأخواتها بفرح، وحب:انظرن، ثم أشارت إلى البدر، وقالت بنشوة الأطفال:انظرن، إنه يبتسم، ويلوح لنا بيديه!

كان البدر يصفق للفتيات الجالسات على الأرجوحة، ويلوح لهن بيديه مرحبا أو هكذا تخيلت ليلى.

قالت ليلى لأخواتها لنصعد إلى العلية،فصعدن، وتكومت الأخوات عند النافذة المطلة على الشارع الرئيس الذي يقسم المدينة إلى قسمين.فقاطعت عروق أمها مرة أخرى وقالت كما يفعل الشارع عندنا !؟

ابتسمت أم عروق وتابعت حكيها: وكانت عائلتها جالسة بحب وقوة ونشاط حول مائدة الطعام، نادت أم ليلى الفتيات ليدخلن ويشاركن العائلة جلوسها إلى المائدة لكنهن ترددن وتمنعن، فقد همست ليلى لهن قائلة: بعد قليل سيبتلع البدر الذئب وسترقص النجوم فرحا، ابقين معي لنرى هذا المشهد النادر.

جلست الفتيات عند النافذة في صفين وجلست ليلى خلفهن تراقب نظراتهن الفرحة نحو السماء، وعلى جانبي الشارع الرئيس، وعلى شاطئ البحر الذي يلوح لهن من بعيد، كانت النيازك تهوي في زوايا مثقلة بالظلمة تمر من أمامهن مضيئة باسمة بسرعة عجيبة،وكانت الفتيات يرقصن فرحا كلما مر نيزك من أمامهن فيشرن إليه بأصابعهن الفرحة، وبينما كانت الفتيات غارقات في فرحهن الطفولي سمعن صراخا رعديا هز أركان البيت يقول: اسمها ليلى، وأبوها شاعر فنان، وأما أمها سعدى فهاربة من المستنقع الغربي إلى منافي التيه. نظرت الأم إلى ابنتها المنصهرة بحكايتها وقالت بحب: ليلى يا عروق، عاشت أكثر عمرها وهي تقاتل من أجل الحياة فوق موج البحر، كم تقاذفتها الشطآن، ورمتها الأمواج، كم حاول البحر ابتلاعها،وعمُّها يعيش الآن في الزنزانة العشرين في سجن على أطراف حبة قمح، وأما خالها محمود

فقد باعوه في شعبان للقرصان وحش البحر، وعمتها تعيش الآن في شق من الصخر على جبل من جبال جزيرة الغيلان، وفي بيت من الزينكو تعيش الآن خالتها، وجدَّتها مربوطة هناك في بئر بلا قاع بخصلات شعر غول هذا البحر...

ثم تابعت أم عروق الحكي ولونت صوتها بلون جديد:نادى الصوت: من يعرف ليلى فليحضرها الآن إلى حاكم البحار السبعة، من يعرف ليلى فليخبرها أن أجلها قد حان فركضت الفتيات خائفات مرتبكات إلى حيث جلست العائلة ولكنهن لم يقلن شيئا.

نظرت أم عروق إلى عيني عروق المغرورقتين بالترقب ثم تابعت: وليلى طفلة قوية سمراء من حب وأطيار ربيعية، وأحلام معتقة، نمت في المصاعب والأهوال وقد رضعت مع حليب أمها قوة الصبر والإيمان بالحياة، وعاشت في سهول الفقر حياة مُرة على الجمرِ،وبين البحر والشاطئ نمت ترقب جزيرة الغيلان وهي تتمدد كل يوم، مشت مشيا على الأقدام من نار إلى نار، والأحلام أشباح تلازمها، تظل تجيء وتوقظها، كانت تحلم أنها في الريح طائرة، وتحلم أنها في الموج وتحت عباب هذا البحر في الأعماق غائصة كحوريات هذا البحر، وتحلم أنها كالنسر تحلق في فضاء الكون الذي يجرفها

بلا عنوان.. وليلى قصة أخرى من الحب سأحكيها ففي قلبها الكبير متسع للحب:فهي تحب الناس والأسماك، والطيور، والأغنام، والنجوم،والقمر،والأشجار...كانت تظل تزور موج البحر لتسمعه أغانيها، وتشهده على ما في قلبها من حب، وعلى ما كان فيه من أحزان حاضرها وماضيها ...

وكم كان البحر يطلبها محتدا مغضنة نواحيه، وكم كان الموج ينحت ساحة الشطآن ليخطفها ويبتلعها.

وبعد سماعها للصوت كم من ذئاب ركبت الريح نحو بيتها وكم من غيلان جعلت الأمواج مطايا لها وهي تزحف نحو بيت ليلى، كم من أسنان وأنياب ومخالب هددت بيتها من بعيد كم كان يملأ الآفاق ويحجب صوت أهل الحي..، ولكن ليلى كانت صامدة ثابتة لم يصل وحش الخوف إلى قلبها لذلك لم يستطع الوحش افتراسها ولم يستطع الموج ابتلاعها ولم تستطع المخالب الكثيرة أن تجرحها، فلم يخفها غرق البر في الأمطار،والأمواج والأصوات، ولا صورته وهو بين المخالب والأنياب وهي تتناوشه من كل اتجاه، كانت ليلى يا عروق ترقب الشاطئ المزدحم بالوحوش باحثة عن ألعابها عن حياتها وذكرياتها، كانت ترفض قبول أن تكون أشياءها الصغيرة

بين أنياب قاتلة طحنت الأشياء الحلوة وأكلت الأخضر واليابس، رأت ليلى ذلك كله فربطت روحها ببيتها وقررت الدفاع عنه وتخليصه من هذه الهجمة المفترسة..

وجاء الذئب ليأكلها، ويسرق منها منزلها ولعبتها.. فلم تسلم بيتها للأنياب، وألقت روحها للصبر، وهاج البحر وماج في دمها، وشق الموج مهجتها، وقطّع كفها ظلام الليل بأنياب ومخالب جارحة فتاكة أرادت هدم بيتها الأخضر..

ومع ما كان فيها من ألم لم تسكت ليلى، فقد قالوا إنها ظلت تقول لن أبقى.. ولن أقبل وفي يدها وصية أمها: يا بنيتي، لا تتركي البيت للغرباء، ومع أن أهل جزيرتها تحولوا إلى أعمدة خيام، وجدران من الغضب، ومات أكثرهم من القهر والغضب والحزن والحسرة إلا أنها ظلت تقول لن أقبل، وهي تقاوم.

وفي كل وقت يتمطى فيه الليل فوق الشاطئ ويحتل أجزاء واسعة من الحي الذي يضم بيتها الأخضر بين جناحيه كانت ليلى تقوم لتصده بيديها حتى ترده على أعقابه .

وفي ليلة أخرى ليلاء ساد الصمت، ووقف أهل الحي كلهم يرقبون كيف توقف ليلى الذئب وتصده وترده، ومن وراء شبابيكهم كلهم كانوا يتابعون رد ليلى على الذئاب التي تكالبت على مدينتهم..

قالت عروق بغضب: ويلهم !...

وغابت عن موارد الماء رغبات من العطش كانت قد تسللت إلى عروق بل غابت هي كلها في أتون الحيرة، ومد الحزن فوق قلبها قدميه...

قالت أم عروق: نعم، ويلهم !وتابعت حكيها: كانت ليلى يا عروق، تجيء بلحظة حبلى بما يزهو من الدم ويشرق، لتلقي بين أعين أهل ذاك الحي ورد الصبر والأمل... انتصرت على الذئاب ومخالبها، وصدت الوحوش والغيلان لكنها وقعت فريسة جيوش غريبة أمسكوها من عينيها وسألوها من أنت: فقالت أنا ليلى وقد لقنت ظفيرتي أناشيد الفرح!

ثم أمسكوها من فمها، وسألوها من أنت؟ فأشارت إلى بيتها، وقالت:... وقد غطيت كعكاتي لعيد النصر، فأمسكوها من ذراعيها وسألوها بقسوة من أنت: فقالت بزهو: أنا ليلى فمن أنتم؟ أنا صاحبة هذا البيت ومالكة ذلك الحقل، وغارسة تلك الشجرة، فقولوا من أنتم ؟

وما زالت تدفعهم عنها وتصدهم بقوة وشجاعة إلى أن أشرقت شمس النهار، فهرب هؤلاء مسرعين إلى جحور كثيرة فتحوها في صدور أهل الحي الذين اصطفوا للمراقبة،واستوطنوا أعماقهم وبنوا لهم فيها ملاجئ آمنة تقيهم نور الشمس!

قالت عروق متعجبة:في البشر! بين أضلاع أجساد بشرية ؟ أيسكن ذئب جسدا بشريا يا أمي ؟

أم عروق بحرقة وحسرة وحزن: نعم، يسكنون!

دكانة أبي عروق

على جانب من مدخل الدكان كانت تنتصب شجرة صفصاف كمارد أخضر، وفي ظل تلك الشجرة التي ارتفعت حتى قال الناس "الدكان التي جانب الشجرة"، كان اجتماع الرجال في المساء ليتناولوا أطراف الأحاديث التي لا تجمعها روابط محددة، فهي لم تكن من جعبة واحدة، وإنما من جعب كثيرة عطشى تنتقل من موضوع إلى موضوع من غير تخطيط ولا هدى، ومع ذلك فهي كانت كلها تنتهي إلى محطة تكبر فيها أحاديث الحنين إلى الديار، ورغبات جامحة بالعودة إلى ظل زيتونة هناك وترك الغرف المتلاصقة التي بنيت على عجل في مساحات قليلة في ذلك الحي، الذي يقتسمه الشارع والعسس، وفي تلك الجلسات أخذ **الخراطون** مجدهم، فقد كانوا يبنون على ضمير الأنا حكايات البطولة والمجد.

"أنا يوم سقطت ذمار قلت لقائد الكتيبة المنسحبة دعني أعطيك خطة التفافية تهزمهم بها شر هزيمة، وتعيدهم للبحر الذي أتى بهم، ومن ورائه كانت حركات المقصات تزرع البسمات على شفاه المتحلقين على رصيف الشارع...

"وأنا لما سقطت ذمار كنت في السهل وسمعت صوت أنين منجنيقات جيش الحاكم وهي تنسحب، وجنوده وهم يقولون للقائد: خلنا هون، خلنا هون لا تنسحب يا...وهو يقول لهم بحزم أجتنا أوامر بالانسحاب..."

"وأنا اللي خبيت تلك المنجنيقات في مغارة الحرباية"

ولم يكن أبو عروق يخوض معهم في الحوارات المتجادلة المتلاحقة عن تسليم الأرض من غير قتال، ولا في شطحاتهم العنترية وهم يشرِّحون القادة ويجردونهم من ألقابهم وأسمائهم وأنسابهم وأصولهم...ولكنه كان يقاطعهم دائما بمواويل لطيفة عن الصيد والصيادين والشقرا والسمرا...وعرفت مع الزمن أنه كان يلجأ إلى تلك المواويل لينهي أحاديث الرجال حين تسرقهم البطولات الوهمية والعنتريات الخيالية، وكأنه يقول لهم اسكتوا فأنتم مطرودون من أرضكم، محرومون من جناها، ويستوطن بيوتكم الأغراب، اسكتوا اسكتوا...

والعبث بالسلاح أمام الدكان عادة العسكريين التي لم يتخلوا عنها فقد كانوا يخرجون سيوفهم وخناجرهم لينظفوها أو يشحذوها بمهارة وتباه ولكن هذه العادة انتهت حين بترت إحدى السكاكين أصبع أحدهم وهو ينظف حربته بتباه وفخر وزهو...

وكان الباعة الجوالون يستَحْلون الوقوف أمام الدكان ويستلطفونه، وبخاصة بائع الهريسة الذي كان يطلب مساعدتي دائما في إشعال السراج وتزييته، وتركيب الفتلة الأصلية.. وكان أبي يحضر لهم الماء، ويجلسهم على المقعد المصنوع من صناديق السمك الفارغة المرصوصة بعناية المربوطة بشدة وقسوة.

وأما في الصباح فكانت الدكان مكان تزاحم أقدام النساء اللواتي كن يبكرن في المجيء لشراء الخضار والفاكهة، ويتحلقن حول أمي في جلسة نسائية عميقة باذخة فيها ابتسامات وضحكات ناعمة راكزة متزنة، وحكايات مليئة بالحزن عن نساء تطلقن، أو مات أزواجهن، أو عن رجال خطفتهم الغول، أو عن شباب غابوا ورحلوا ولم يسمع عنهم خبر، وتظل أحاديث الحلقة النسائية مترعة على عتبة الدكان والرصيف الممتد على يدي الشارع حتى تطل العربة المحملة بكل ما لذ وطاب من الخضار والفاكهة، فتنفضّ الجلسة، وتتسابق النسوة لفض ختم صناديق الخضار كلها وأبي يقول لهن بلطف ورجاء حزين:"من (بُكسَةٍ) واحدة يا خواتي، لا تفتحن (البُكس) كلها" ولم تكن النساء يسمعن رجاء أبي...

وأما أنا فكنت أتابع بفرح حركات الأيدي وهي تلاطف حبات الخضار، وتضعها في الأكياس الورقية...

وذات يوم استوقفتني على درجات الزقاق المتشح برائحة الحزن والفقر والقلق، وقالت لي وهي تسكب ضحكة مترددة: سامحيني، قبل عشرين سنة كانت عربة أبيك مباحة لي، فكم استغللت انشغاله ببيع، أو محاسبة، أو مفاصلة لأسرق من تلك العربة الخشبية حبات برتقال، أو حبات كرز، أو حبات تفاح...!

قلت لها وأنا أحاول لملمة بعض الطيبة التي ورثتها عن أبي:سأذهب غدا إلى المقبرة، وسأعرض عليه طلبك، لكن بربك قولي لي، لم الآن، وشعرك يتشح بشيب الخمسين؟ ما الذي أيقظ نبض الندم في عينيك؟!

قالت لي وهي تعرج على مهارتها في سرقة عربة أبي،ودكانه:لا أدري،ولكنني شعرت أنني بحاجة لوقفة أمام نافذة اعتراف!

قلت لها بارتياح: فأعيدي لنا ما سرقت، ليسهل علينا مسامحتك!

لكنها تمتمت ثم برمت وتبرمت وشاطت غضبا ثم نظرت إلي بقسوة ورحلت !

ولما كان هذا الحوار صباحيا ظننت أنه يوم السارقين والسارقات،ويوم الاعتراف الأكبر.

لكن صوت سرحة لم يطرق نافذة الاعتراف،كيف لا، وهي تعرف أنني رأيتها وهي تضع علبة السردين في عبها، كيف لا وقد رأيتها بعيني طفلة مستعجبة وهي تستغفلني لتضع في جيبها أضعاف ما دفعت ثمنه!؟

ولِمَ لِمْ تأتِ أم رقشة التي فضحها ابنها الصغير وهي تخفي علبة الجبنة في عبها؟

ولِمَ لِمْ يأت هؤلاء الصبية الذين كانوا يسرقون من عربة أبي يوميا وهو يجمع من سماسرة الحسبة بضاعته؟

ولِمَ لِمْ يأت لطلب المسامحة هؤلاء الذين كثيرا ما خلطوا بضاعتهم وأخفوا عيوبها قبل أن يبيعوها لأبي؟

ولِمَ لِمْ يأتِ لطلب السماح هؤلاء الذين حاصروه وهو يسعى، وكبلوا يديه وهو يلتقط رزقه من بين أنياب الدهر؟

لعلهم سمعوه وهو يقول لي" لا تجادلهم، ولا تعادهم، اللي... بيخبيلك!"

أتى الصباح ومضى، وتبعه المساء وأنا ما زلت واقفة عند باب الدكان أراقب عيونهم وخطواتهم وهم يتنمرون على أعمارهم...

الاعتقال

هجمات الريح القوية المحملة بالأتربة لم تكن عائقا أمام جنود الزعيم الذين حاصروا بيت عروق واسترقوا النظر إلى أحلامها وأحلام إخوتها الذين كانوا يشربون من أحلامهم السعيدة، تلعثمت أفئدتهم جزعا وهم يرون تلك الأيدي القاسية الكثيرة وهي تجتاح أسرتهم وتنتزعهم من بين أحضانها...

التفت يدا عروق حول صراخ أمها وحوطته بدمعتها وحضنها.

قالت أمها بحرقة وغضب عاجز: شو بدكم بالولد..لا تفزعوه في نومته...هو بإجازة مش هارب من الجيش...

قالت لي عروق: لن أنسى تلك العيون، عيونهم اللئيمة هي أكثر ما ظل عالقا في ذاكرتي، هي عيون لا تنسى، ثم التفت إلى الجدار وأشارت إلى أثر ما، خدش كجرح في باطن الكف وقالت: كم تمنيت لو أنني لم أتجمد خوفا في حضن أمي الباكية، لقد سألوه بقسوة وخشونة: أنت المنذر؟

فقال لهم وهو يحمل همَّ الحامي المدافع عن بيته: من أنتم، وكيف دخلتم، وما تريدون؟

كانت اللطمة الأولى التي يتلقاها المنذر في حياته، جرُّوه من شعره وهم يقولون له هذا سيجيبك عن أسئلتك!

وقالت لي عروق: لم تكن أمي خائفة فقد سمعتها وهي تشتمهم وتنهرهم، ورأيتها وهي تدافع عن أخي بشراسة، وتقول لهم بصرامة أتركوا الولد يا وحوش، يا عبيد العصا، يا مسامير الكراسي، اتركوا الولد!

كانت رواية إيميل حبيبي سداسية الأيام الستة بين يدي حين كانت عروق تروي لي الحادثة، قرأت:

"هل تذكر أنه في مطلع شبابنا كان لنا صديق أحب فتاة من القدس، أو من بيت لحم، من هناك، وكنا نحب حبه؟"

فتصلبت حروفي وأنفاسي فتركت الرواية وانحنيت على قلبي أهدهده

.....

قالوا لي كان ذاك صوت عروق...

فقد أفاقت عيون الجزيرة كلها على صوت عروق وهي تصرخ وتصيح:لا لا لا لن أعطيك غرفة أخرى!

احتضنتها أمها وحاولت جاهدة أن تسحبها من بين يدي الكابوس، ولكنها لم تستطع فلجأت لرشها بالماء.

الغرفة الحمراء

تضيق المساحة المتبقية من البيت في عيني عروق، وتزدحم في روحها علامات الغضب حين تمد أمها الفراش على الأرض، وتتمدد أجساد إخوتها فيما تبقى لهم من مكان للنوم، فقد تتلاصق الأجساد وتتصادم الأيدي وتتلاطم الوجوه فهي كثيرا ما صحت من النوم عند قدمي أختها، أو معلقة على الحاجز الخشبي الذي يفصل البنات عن الشباب، وكم من مرة حاصرها الخجل وهي ترى نفسها وهي معلقة على الحاجز وقد تكشف جزء من جسدها بينما كانت تنتقل من حلم إلى حلم، أو تتقافز في أحلامها بين غرفة وأخرى.

كانت الغرفة المتبقية لهم فيها مطبخهم، وفيها منامهم وقد اتفقوا فيما بينهم على قواعد وقوانين ومواقيت صارمة تحكم علاقاتهم وتنظمها فيها، ووضعوا لهم قواعد للنوم ولتغيير الملابس والاستحمام والدراسة والغناء واللعب...

ويبدو أن عروق لم تكن قادرة على الصبر في تقبل هذا الواقع ففي هذا الصباح وقف الغضب على قدميه بين عينيها، فقد رفضت أن تغمض عينيها ليرتدي أخوها ملابسه، ورفضت أن تخلع ملابس النوم للذهاب إلى

المدرسة، وقالت لأمها لن أغمض عيني بعد اليوم وأنا أرىٰ الفراغ والخوف والقلق يساكنونا بيتنا، ولم تفلح تحببات أمها وقبلاتها في ثنيها عما أقرّته وقرّرته واستقرّت عليه.

- أمي، لن أستطيع احتمال هذا أكثر،هذا فوق ما يحتمله عقل بشري!

١١

قالت عروق لأبيها الذي حشر الغضب كله في حدقتي عينيه: الغرفة الحمراء التي تتحدث عنها يا أبي تأكل راحتنا تحتل مساحة الحلم في بيوتنا، لن أقبل بوجودها يا أبي!

فقال أبوها وهو يكتم أنفاسها النارية بعينيه: لكن الغرفة يا ابنتي مربوطة بمصيرنا إن فتحناها انكسرنا وهجمت علينا الأمم، وتداعت علينا، وأكملت الأشباح طريقها في جزيرتنا!

– من قال ذلك ؟!

– عراف الزعيم يا بنتي عراف الزعيم!

– أنت قلتها يا أبي أنت قلتها ! إنه الزعيم، هو زعيم من زعماء الوهم يا أبي، إنه يسرق منكم راحتكم ليبني حصنه، وينسج فراشه، ولينام قرير العين من غير قلق ولا أرق..يا أبي دعني أدخلها ليطمئن قلبي، أريد أن أعرف ماذا وضع فيها !

التفت إليها أبوها وقال لها بحزم وقسوة وهو ينتفض غضبا: إياك أن تدخليها إياك !

فقالت وهي تشعر بأنها سببت أذىً مزعجا لأبيها: لمِ يا أبي، لمِ لا يا أبي، دعني أكشف ما في الغرفة الحمراء التي تحتل ربع بيتنا!؟

نظرت عروق إلى أمها التي امتقع وجهها بالخوف والقلق والارتباك فأشفقت عليها وعلى أبيها منها وعليها من نفسها، فانسحبت بهدوء من الحوار، ومشت نحو أمها واحتضنتها بحب

- يا بنتي، يا بنتي احنا مش قد الحكومة.

سكتت عروق، ولمِ تعلق، واكتفت بمسح دموع أمها التي فاضت من عينيها...

يوم التخلي

كانت عروق تمشي في الغرفة الضيقة وكأن على رأسها الطير، وتتحسس وجهها مرة وشعرها مرات كثيرة. كانت تمسكه بحب، ثم تشده بغضب وقهر، وتتجه بعينين صارمتين إلى النافذة وتنظر إلى البيوت المتراصة المتلاصقة، ثم تردد: وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى، ثم ترسل عينيها بصمت حزين من النافذة المطلة إلى الشارع الرئيس محاولة لملمة ما تبقى لها من ضوء النهار قبل أن ينادي المنادي إنّ ساعة حظر التجول قد حانت، وتلتفت الى أختها ملك وهي تمسك بلعبتها بحنان، وتضمها إلى صدرها برفق فتهتز روحها ويتكسر في جسدها الجليد، ويضيق الجلد وتقشعر وتتقلص مساماته.

تتراجع عروق خطوات إلى حيث تطل على المرآة الوحيدة في البيت فترى شعرها الخيلي المنسدل على كتفيها كشلال يلوّح لها برقة ورأفة، وتنظر إلى عينيها الغارقتين بالحيرة فتغمضهما، ثم تعود لتمسك شعرها وتشده بغضب وقهر وتفتح عينيها وتجول ببصرها في كل مكان في الغرفة فترى المقص فاغراً فاه على قطعة قماش بالية عند ماكنة الخياطة الساكنة الجائعة

المستلقية في وسط الغرفة..تراها أمها على هذه الحال فتناديها ولكنها لم ترد، ولم تلتفت إليها.

قالت أمها بصوت حاد: الشعر ينمو يا بنتي، وما ضاع منا أو سرق افتقدناه، ولكننا لا نعلِّق أرواحنا به، ولا أيامنا عليه، وشعرك هذا إن أخذوه سينمو غيره.

– لا، يا أمي هذا جزء من روحي إن أخذوه قتلوني، لن يحصلوا عليه، ولن يملكه غيري، وأسرعت إلى المقص فأمسكته برغبة وحب ورضا، وشرعت بقص شعرها، وأمها تنظر إليها بعينين دامعتين، وهي لا تحرك ساكنا...

كان قرار لجنة إدارة المدينة واضحا لا لبس فيه، فهو يقول بالحرف الواحد:

بأمر من الزعيم،حماه الله ورعاه وأيده ونصره على من عاداه، سيبدأ تنفيذ قانون التخلي العام بداية من صباح يوم السبت 1/ 1من عام القلقلة، وستقوم فرقة الدفاع البحري في جزيرة الذمار بتنفيذ تعليمات الزعيم على كل فرد، وفي كل بيت، وفي كل خربة، وخرابة، وحارة، وزقاق وخربوش، وكوخ، وعش، وكهف لتبقى جزيرة الذمار حية عالية.

وقد صدر عن ديوان الزعيم ما يأتي:

زعيم جزيرة الذمار

اللجنة الوطنية العليا للصمود والتصدي

يكون آخر يوم ثلاثاء من كل شهر يوماً عظيماً للتخلي، تقام فيه الاحتفالات والمهرجانات، وتعقد فيه الندوات العلمية، وتعقد من أجله في كل حي الرقصات والدبكات، وترفع فيه رايات النصر الخضراء والصفراء وتعلو الزغاريد

عاش شعب جزيرة الذمار

عاش الزعيم

عاش شعبنا

وإنه لصبر حتىٰ التحرير

الزعيم في 26/ 12من عام الثلجة الكبرىٰ الثانية

وينص قانون التخلي الذي وقَّع عليه الزعيم علىٰ ما يأتي:

أولا: يفتح المواطنون بيوتهم في كل آخر يوم خميس لإخوانهم وأخواتهم في جيش الدفاع المحلي والقوىٰ التنفيذية ليختاروا ما يشاؤون منها علىٰ ألا يتجاوز ما يختاره عناصر الدفاع قيمة المئة شيقل.

ثانيا: يقدم كل فرد في العائلة أفضل ما يملكه لعنصر الدفاع.

ثالثا: تُستقبل عناصر الدفاع لحظة دخولها البيت بالزغاريد والأهازيج الوطنية.

رابعا: تُودع عناصر الدفاع ساعة خروجها بالتحيات المباركات والزغاريد والأهازيج..

انتشرت في صباح ذلك اليوم سرايا الدفاع والهجوم والقوى التنفيذية وعملاؤهم وأصدقاؤهم في ممرات جزيرة الذمار وأحيائها، ودخلت البيوت المفتوحة أبوابها على مصاريعها، وعلت في الجزيرة الزغاريد والأهازيج. وانتشرت في شوارعها حلقات الدبكة

كانت النافذة المطلة على بيت جيران أبي المنذر مفتوحة حينما علا صوت أبي الصواري وهو يحاول منع هؤلاء من سحب زوجته اللاجئة النازحة التي لم تزغرد كبقية جاراتها، لكن محاولاته كلها ذهبت عبثا فقد كانت الأيدي أشد وأغلظ وأقوى

سُحبت أم الصواري إلى منصة الجلد الرئيسة حيث حشرت مجموعة كبيرة من النساء وصُفَّت بقسوة بانتظار الجلد.

حاول أبو الصواري أن يتكلم، وأن يحتج، وأن يعترض ولكن الأيدي الكثيرة الشديدة القوية دفعته بعيدًا فصار يزغرد ويزغرد ويغني حتى ضحك المسؤول عن الجلب فقال باسما: من تريد منهن أيها الشيخ المزغرد ؟!

قال أبو الصواري زوجتي تلك التي تقاومكم بقوة فقال المسؤول: أعطوه هذه العجوز الشمطاء، ولكن عليها أولا أن تزغرد فرحا بنا وبهذا اليوم الوطني فقال أبو الصواري: لكنها..ولكنها بكماء صماء

استقبلت أم المنذر جنود الدفاع بالزغاريد، وأما أبو المنذر فصار يصفق ويغني ويلوِّح بيديه حتى ضحك أطفاله وابتسم الجنود وهم يفتشون في الغرفة عما خف وزنه وغلا ثمنه، ولكنهم وبعد تفتيش وتقليب لم يجدوا غير بطانية تركية ناعمة.

سأل أحد الجنود أبا المنذر وهي بيده عنها، فقال أبو المنذر بحرقة: هذه جلبتها معي في آخر رحلة صيد، يوم كان يسمح لنا أن نسافر ونطوف ونبحر، وقبل أن تحتل الأشباحُ (الأرض العليا).

تناول الجندي البطانية ورفع يده وقال: قانون التخلي خطوة إلى الخلف نفِّذ.

واصطف الجنود عند الحائط بانتظار الهدايا الفردية، فقدم أبو المنذر مقص شواربه، وقدمت أم المنذر حزامها الشامي، وانتظرت إحدى المجندات عروق حتى صارت عندها فقالت بنفرة ونبرة تجبرية قاسية لها: أريد شعرك، انزعي طاقيتك؟

نزعت عروق طاقيتها وهي تخفي فرحة شامتة، ويملؤها شعور بالنصر، وبأثره الجميل اللطيف الرقيق يسري في جسدها فينعشه.

قالت المجندة بغضب:قصصت شعرك يا...

: نعم قصصته، كان مليئا بالقمل فخفت أن ينتشر في شعر خادمات الزعيم العظيم!

وانتظرت أم المنذر حتى خرج الجنود فمالت على ملك ومسحت على شعرها بحنان: ملك لِمَ لِمْ تعطهم دبدوبك يا حبيبتي؟ لو علموا أنكِ احتفظت به لعذبونا وعذبوك ؟!

ملك الصغيرة التي لبست لباس البحر وغطت شعرها بطاقية جدها البحار الأعظم نظرت إلى عروق بزهو ثم إلى أمها بفرح وقالت: ما ممكن أتخلى عن عيوني، لا أحد يهدي عينيه يا أمي إلا في الأغاني الكاذبة!

الغرفة الحمراء

تعرف عروق أن يوم الأول من أيلول هو اليوم المعروف بالغفوة الكبرى، الذي فيه النسيان الأكبر، اليوم الذي تنسى فيه كل نفس على الجزيرة من هي، وأين تسكن، وما تفعل، فتتصرف على فطرتها، وتركض خلف ما يملؤها، ويسكن روحها، ويحتل قلبها، وهي تعلم أن أهل الجزيرة يعدون لذلك اليوم عدته، فيربطون الأطفال إلى أسرّتهم، ويشدون وثاق حيواناتهم ويطفئون النيران في مهاجعهم ومطابخهم، ثم يناومون وهم مربطون إلى بعضهم بحبال متينة غليظة.

" أما أنت يا عروق فستدخلين تلك الغرفة الصامتة القاتلة المقيتة، نعم سأخلع الباب خلعا لن أحاول سرقة المفتاح وسأدخلها، سأرى ما وضع الزعيم الهبر فيها"

يوم النسيان

يوم الفتح

لم تكن أشعة شمس الصباح في يوم النسيان الأكبر قادرة على تذكير المقيدين بالأصفاد بمهماتهم اليومية فقد نسي الجميع ذكرياته كلها، وامتلأت شوارع الجزيرة بالتائهين والتائهات والهائمين في الشوارع والهائمات من غير هدى أولئك الذين لا بيوت لهم أو ممن لم يقيدوا أنفسهم نسيانا أو رفضا أو تناسيا...

قالت لي أمي: يا عروق، هات يديك لأقيدك إلى السرير!

وأعطيتها يدي بلا تردد أو مناقشة ولم أجادلها، ولم أنظر في عينيها...

- تصور يا جذور أن الناس تختار القيد طواعية ورغبة وخوفا، كانوا يطلبون القيد برغبة جامحة للتخلص من عقدة النسيان!

قال جذور باسما: أما أبي فقيدني بيديه، ورفض أن أتولى الأمر، وهو الذي قيد أمي وإخوتي وأخواتي، أبي قيدنا كلنا بقيد التفَّ على جسده، ورمى المفتاح في ساعة الرمل.

وفي الصباح كانت الأيدي كلها نافرة غاضبة تحاول الإفلات من وثاقها ومن عقد حبال غليظة وأقفال وجنازير.

كانت تلك فرصة عروق لاختراق هذا الشمع الأحمر الذي يقف حارسا قاسيا متعجرفا بلا رحمة أمام راحة أهل بيتها، بل أمام راحة أهل الجزيرة كلهم.

قررت عروق أنها في ذلك اليوم ستزيح الشمع الأحمر بيدين غاضبتين مصرتين ثابتتين

وكتبت على ورقة ما يأتي وشبكتها بقلادتها:

"نعم سيخاف أبي، وستغضب أمي وسيحزن إخوتي وستبكي أخواتي ولكنني ما عدت أستطيع، سأفتح الباب".

ولم تتوقف عروق عند العتبة الأولى فهي قد رسمت لنفسها الطريق، ووضعتها قلادة على صدرها موضحة فيها الخطوات:

أولا: فكي الحلقة الصفراء، فهي وهمية، وسيُفكُّ قيدك، ثم توجهي إلى الباب، اكسري القفل وبعثري شمعه الأحمر، وادخلي الغرفة الحمراء، ادخليها وابحثي عن أي شيء فيها واحمليه معك، ثم اخرجي من البيت وامشي في الشارع وأنت تنظرين إلى ذلك القصر العالي الضخم ولا تتوقفي إلا وأنت على بلاطه، ثم سيري إلى غرفة حمراء في القصر وادخليها بسرعة وقوة ولا تترددي وخذي ما فيها كل ما فيها واخرجي من القصر !

دخلت عروق غرف القصر وتجولت في ممراته وهي ترى الأيدي الناعمة المقيدة تلاطف الحبال وتشاغلها وتلاعبها.

قرأت الورقة مرة أخرى:" سترين غرفة حمراء ادخليها ولا تترددي".

ودخلتها فرأت طاقية حمراء لامعة تحتل وسط الغرفة فتناولتها ووضعتها على رأسها واتجهت إلى المرآة ولكنها لم تر نفسها، ثم قرأت من الورقة: اخرجي من القصر إلى الشارع، وامشي فيه حتى نهايته، سترين بيتاً على التل ادخليه ثم اصعدي إلى السطح ونامي هناك، ابقي هناك ولا تخرجي.

يوم الحلم

لم تكن أم المنذر قادرة على السيطرة على نبضاتها المتسارعة خوفا وقلقا وهي تقوم من نومها العميق في ذلك الصباح المتخم برائحة البحر وغناء الصيادين، فقد جعلها ذلك الحلم تتخبط في مشيها وتفكيرها حتى وقعت على الأرض مغشيا عليها.

كانت العيون الكثيرة المتزاحمة تنظر إليها، فحكت أم المنذر قصة حلمها بتفاصيله المملة للنساء المنتظرات بشغف وترقب ويتحلقن حولها وهي تسترد أنفاسها وروحها وتوزع نظراتها في أنحاء الغرفة، وعلى جدران الغرفة الحمراء:

...قال العراف للطفلة التي حملتها أم المنذر المرأة الطويلة السمراء القادمة من أقصى جزيرة الذمار بعد أن اهتزت الجزيرة كلها هزات قوية متتابعة في دقائق، وسكن الفضاء وأُخرست الأصوات:

عيناك يا صغيرتي بومتان ترقبان رسالة جديدة من المطر

وأنت أنت

ستجلسين فوق سلم من الألم

وستحلمين وتحلمين وتحلمين...

توقفت سحابة على يدي العراف، فجلس ليحتسي شرابه المعتق الذي فاحت رائحته التي استهلكها الدهر، ثم التفت إلى أمها وسألها مرة أخرى عن اسم هذه الطفلة التي تنظر إليه بتحدٍ.

قالت الأم بقلق وارتباك: عروق، إنها عروق!

قال العراف:

ستزهر العيون ولونها مطرز بجثتين ومعركة
ستحملين يا صغيرتي حقيبتين؛ باليمين والشمال
وبعدها ستضحكين ليلتين بعد ليلة من النوم العميق
وبعد عام يابس سيأكل الذباب من يديك قضمتين
وستحلمين...
وتحلمين..وتحلمين...
وبعد أن يجف صوت العود
وترتد البسمة إلى مخزنها فيه ستكثر الرعود
وتبرق الغيوم على جزيرة الذمار...

حمل الأب ابنته وهو ينظر إلى جمال عينيها وصلابة نظراتها:

صغيرة اليدين عيونها من نخلة، ومن دار جدها تشربت إصراره!

قال العراف: وصوتها الرفيع سيدور في فراغ محنتي سيدور، سيجعل الحروف تنام في القبور!

قال الأب: يا طفلتي يا طفلتي!

قال العراف للزعيم:عليك بها، فتش عنها واقتلها، فهي بعد لم تعرف حكايتها القادمة معنا فقد رحلت ساعة السحر...

قال أبو الطفلة المتربع فوق بساط الخوف:

أنا أنا ومن يدي رسمت كذبة الصباح

ومن فمي تزاوج النخيل

لا شمس في دمي تمر لا صهيل

وكل قطعة تجوع في دمي دليل

حدَّثت كل من رأىٰ صغيرتي عن حقيبتين

لكنهم لم يعرفوا الجواب

حدثتهم عن وقفة طويلة علىٰ الرصيف

عن صوتها عن دربها الطويل

عن ليلنا الذي يجيء كالمحاق

عن عمرنا الذي يظل فترة من الزمن لا موت فيه لا حياة

لا شوق أستبيح في دمي ثراه، لا بديل

لكنهم لم يعرفوا الجواب...

وفي الصباح

تكاثرت على دم أم الطفلة العيون

ولوحت لمرسل الرياح

تذكرت ما قاله العراف:

أبوح بالبعيد

مطارد شريد

عليه لوحة الكلام وشهوة الغيلان

لا صوت في يديه أو حروف

يفرُّ من شقاوة السراب ورقة السحاب

ليحتسي أرجوحة الأيام

فأخفت الأم طفلتها عن العيون خبأتها في حضنها.

قالت أم الطفلة للعراف:

تعبت من حكاية الكلام والكلام،

تعبت أنني أجوع في النهار والمساء...

وبعد لحظة من حديثها مع النساء تجهمت السماء، وهبت ريح قوية طيرت كل ما في الشارع الرئيس من أشياء معروضة للبيع، زجاجات العصير وصناديق البيض والليمون والزيتون، وحطمت نوافذ البيوت...

يوم العراف

لا يعيش العراف **طواطم** بعيدا عن الجزيرة وأهلها فهو يعرف كل أخبارها، كان يعرف كل صغيرة وكبيرة، وكل شاردة وواردة فيها، فعلى الرغم من أن هذا الملثم الطويل الذي لا يظهر على الناس إلا وبيده عصاه، ويعتزلهم في غرفته الحمراء التي بنيت له بأعلى التل في ظاهر الجزيرة إلا أنه يعرف كيف يحصل على المعلومات من الرجال الذين يأتونه مستفسرين ومستنصحين ومستعلمين، وعندما تشتد الأمور وتضطرب الحياة على الجزيرة فإن الزعيم نفسه يستدعيه ويطلب مشورته، وهو يحب الزعيم ويجاريه ويدعمه ويسانده، ولكنه هذا اليوم لا يعرف لم استدعاه على عجل حتى لم يمنحه فرصة ترتيب غرفته وتنظيم أدواته، فقد حضر الجنود وحملوه ووضعوه برفق في عربة الجلب، وساروا به إلى قصر الزعيم.

فتح جندي ذو عضلات مفتولة الباب للعراف، ثم أشار إليه أن تعال من هنا.

كان الزعيم جالسا على كرسيه مرتبكا منزعجا وأمارات الغضب بادية على محياه، ولما رأى العراف قام من مكانه، ورحب ثم قال له بلهفة: تعال يا طواطم تعال، أفتنا في أمرنا ؟

رأت عروق عربة الزعيم وهي تتجه إلى ظاهر المدينة فعرفت أن الزعيم يطلب العراف، وأنه يدبر أمرا لها، فلبست طاقية الإخفاء وتتبعت العربة وسارت إلى جانبها حتى دخلت القصر برفقة العراف مستغلة نفور الكلاب منه، وبالقرب من كرسي الزعيم ألقت رحالها وجلست القرفصاء...

قال الزعيم للعراف بتودد: طاقية ريش الجن ؟!

قال العراف بتوتر: ما بها يا زعيمنا ؟!

قال الزعيم وهو يشد شعر رأسه بأصابعه: اختفت! سرقتها فتاة من الحي الشمالي اسمها عروق!

العراف وهو ينتفض خوفا وقلقا: فلنحضر الفتاة يا سيدي ونجعلها تعترف أين وضعتها!

الزعيم بغضب: أسكت أيها الأحمق، لقد اختفت الفتاة، وفرقة الفقد والتغييب تقول إنها ليست على علاقة بفقدها!

العراف: هذا يعني أنها تعرف قيمة الطاقية وخطورتها؟

قال الزعيم بنبرة رجاء: هل تعرف طريقة نُفقد بها الطاقية تاثيرها وفاعليتها؟!

فكر العراف قليلا، ثم رمى بجسده على فراش الزعيم الوثير، ثم قام ومشى في غرفة الاستقبال جيئة وذهابا عدة مرات والزعيم يراقبه مترقبا قلقا، وفجأة وقف في وسط الغرفة ثم صعد إلى الطاولة وقال بصوت صارم قاطع حازم: يا زعيم يا زعيم!

فأجابه الزعيم بلهفة وشوق: نعم، نعم؟

يا زعيم، علينا أن نذبح بقرة حمراء في وسط ساحة الجزيرة يوم ثلاثاء فوق المنصة على ألا يصيب دمها الأرض، وألا يبقى على النطع منه شيء، وأن تحضر لي دمها في وعاء فخاري قبل غروب الشمس واحذر أن يرى الدم في الوعاء أحد من البشر حتى من يجمع الدم في الوعاء!

التفت العراف إلى لوحة علقت بمهارة وفنية عالية على سقف غرفة الاستقبال، ثم حول نظراته إلى الزعيم وقال وهو ينظر إليه نظرات غريبة فيه تحد وخبث: أليس الثلاثاء غدا ؟! فليكن الغد موعدنا!

حمل الجنود العراف إلى العربة ومشت معهم عروق حتى خرجوا من باب القصر، وهناك قال العراف بصوت عالٍ: يا صبية أتظنين أنني لا أراك؟ أنا أراك، وأعرف أنك معي، طاقيتك هذه لا تخفيك عني!

عرفت عروق أن العراف يستدرجها، ويحاول خداعها فلم تجبه.

وفي الصباح كان الجنود يفتشون الجزيرة كلها عن بقرة حمراء وجدوها عند أرملة في الحي الجنوبي فاشتروها بثمن بخس دراهم معدودة وساروا بها إلى القصر، وربطوها عند بوابته الضخمة.

احتشد الناس عند المنصة وهم يظنون أنهم سيشاهدون الجلاد وسوطه، أو أنهم سيسمعون آهات المجلودين لكنهم هذا اليوم دهشوا حين رأوا البقرة والنطع.

قال أحد الصيادين: ما فعلت هذه البقرة المجرمة ؟

قال آخر: يبدو أنها أكلت من مزرعة الزعيم التي في ظاهر الجزيرة !

وقال آخر: لعلها نطحت بقرة من بقرات الزعيم !

أخفى الصيادون ضحكة لو ظهرت لأودت بهم إلى التهلكة

أمسك الجزار السيف وهمّ بقطع رقبة البقرة فقال له الزعيم: قف، لا يجب أن يرى هذا الذبح أحد من أهل الجزيرة حتى أنت!

فقال الجزار بخوف ورهبة: لا أستطيع فعل ذلك يا زعيمي، لا أحد على وجه هذه الأرض من البشر يستطيع فعل ذلك!

فقال الزعيم بغضب: ألم يعلموك في المدارس ألا تقول لا أستطيع، وأن تقول دائما سأحاول؟!

فقال الجزار بخوف: سأحاول يا زعيمي سأحاول!

عرف الزعيم حينها أن ذبح البقرة بالطريقة التي طلبها العراف، وعلى الشروط التي وضعها صعب بل غير ممكن، فقال بصوت متدحرج بالغضب: يا حراس اجلدوا هذا الجزار حتى يتوب عن ضلالته!

أرسل الزعيم في طلب العراف فأُحضر، وأُلقي بين يدي الزعيم الذي كان في استقباله يحرق يديه حيرة وارتباكا وتشتعل عيونه غضبا: كيف يفعل إنسي ما طلبت أيها العراف ؟

فقال العراف بهدوء: يا زعيم! أذّن في الناس يأتوك على كل ضامر ومن كل فج عميق، وأجزل الهدية وأحسن الجزاء!

فقال الزعيم: نعم الرأي!

فنادت فرقة الأخبار: يا أهل الجزيرة الكرام، يا أبناء الفاتحين، وورثة الماجدين من يستطيع أن يذبح بقرة من غير أن ينظر إليها، ولا يضيع من دمها شيئا فليحضر إلى قصر الزعيم غدا وله إن فعل جائزة عظيمة ينتقيها هو بعيونه ولسانه ويديه".

قال جذور لعروق وهو يستمع إلى صوت المذيع: أنا أستطيع فعل ذلك!

قالت عروق بدلال: أتريد أن تتخلص مني، أتريد أن يقبض علي الزعيم ويحصل على طاقية الإخفاء ؟!

قال جذور بابتسامة رشيقة: نعم نعم، أريد !

ومضت أيام ولم يتقدم أحد لنيل جائزة الزعيم، فقال جذور: ما رأيك لو تقدمت أنا لفعل ذلك، وقتلت البقرة الحمراء الوحيدة في الجزيرة ؟

قالت عروق بخوف: لا لا!

فقال لها جذور بحنان وحب: يا عروق، إن تخلّصنا من البقرة لن يبقى ما يمكن أن يسبب اعتقالك ! وأنا سأعدُّ خطة مُحكمة تمكّنني من الهرب والإفلات.

قالت عروق باهتمام: لا تتعجل وانتظر!

فقال جذور وهو ينظر في عيني عروق المبرقتين: بل علينا أن نسرع لئلا يتطوع من لا دراية له بالعواقب من الناس الطيبين!

أعد جذور وعروق خطة محكمة للنيل من البقرة والزعيم، وفي الصباح كان جذور أمام القصر يطلب مقابلة الزعيم.

قال الزعيم: ما هي خطتك، وضحها ؟

وشرح جذور للزعيم خطته، وأسهب في الشرح حتى اقتنع الزعيم، وفرح بذكائه وحنكته، وقال له: غدا موعدنا، وإن غدا لقريب !

أمسك جذور البقرة، ووضعها في الممر الضيق، وحبس رأسها في ممر خشبي مصقول ينفتح على وعاء الدم الذي ربط غطاؤه بخيط إذا قطعه أغلق الوعاء من غير أن يراه أو يمسه

حشر جذور رأس البقرة في الأنبوب الخشبي المصقول الملاصق للأرض، ثم قطع رأس البقرة فسال الدم في الأنبوب بقوةٍ إلى الوعاء، وظل يراقبه بعينيه حتى انتهى تدفقه، فقطع الخيط، فانغلق الوعاء فركض الزعيم حين ذاك إلى الوعاء وحمله بنفسه بسرعة إلى العراف؟

والتجأ جذور إلى مكان تحت الأرض لا يعرفه غيره، ونادت فرقة الأخبار في الشارع الرئيس الذي يفصل الجزيرة إلى شطرين يتحيفهما الأعداء:

"من يقبض على جذور أو على عروق، أو على كليهما، فله برميل من الذهب، وكل من يحميهما أو يخفيهما أو يتستر عليهما فعقوبته الموت العقوبة القاسية الشافية "

وفي اليوم التالي نادت فرقة الأخبار في الناس بالبيان الآتي:

يا أهالي الجزيرة الكرام، بيان هام هام، اسمعوا وعوا، يا أهالي الجزيرة الكرام، قرر الزعيم أن يكون يوم الاثنين من كل أسبوع يوما للعراف طواطم، تخرج فيه القرية كلها إلى معتزله حاملة له الهدايا والتحيات المباركات، ولابسة لباس البحر والبحارة.. ويحمل الرجال على رؤوسهم جِرارا من الفخار، وتحمل النساء في أيديهن أكاليل الغار، وأما الأطفال فيحمل كل ذكر منهم بيضة دجاجة، وتحمل كل أنثى بيضة حبش، وتسير قافلة الزائرين إلى معتزل العراف في الساعة الخامسة صباحاً من ذلك اليوم، ويبقى الناس جميعهم على تلة المعتزل حتى المساء لا يشربون في ذلك اليوم ولا يأكلون ".

الخطة الخمسية

كانت مخططات الأنفاق السرية التي تصل القصر بالشاطئ بين يدي وحدة (فرِّق تسد) العسكرية ومنها كان المنطلق لتنفيذ خطة 22/ 14المسماة في علم الجاسوسية" فرق تسد " فقد انطلقت من هناك من قصر الزعيم فرقتان مختصتان بإثارة الفتن، وخلقها والتحضير لها وتأجيج نارها، ومشت في تلك الأنفاق، التي تصل بين شطري الجزيرة؛ حتى وصلت الشطر الشمالي فألقت عليه ما ألقت، وأشعلت النيران، وحرقت مجموعة من البيوت، ـ وانتقلوا إلى الشطر الجنوبي، وفعلوا فيه ما فعلوه في الشطر الجنوبي مستغلين الأنفاق التي تمر من تحت الشارع الرئيس الذي يقسم الجزيرة إلى شطرين متناحرين: قبيلة العابسين وقبيلة الفرحين، وكان الشطر الشمالي من نصيب العابسين والشطر الجنوبي من نصيب الفرحين. وتجدر الإشارة إلى أن هذين الاسمين لا يعبران عن طبيعة أهل الشمال وأهل الجنوب. فهما اسمان وحسب وهما لا يدلان ولا يشيران.

نثرت مجموعة من فرقة (فرق تسد) منشورات تهجو قبيلة العابسين، ونثرت مجموعة أخرى منشورات تهجو قبيلة الفرحين، وانسحبتا عبر الأنفاق إلى القصر

استيقظت عروق فزعة على أصوات انفجارات ضخمة، فركضت نحو النافذة، وهالها ما رأت وأحزنها؛ فقد كانت قنابل الملوتوف تعزف لحنا دمويا في شطري الجزيرة، وكانت الحجارة تنهمر على كل مكان فيها، وتُقذف من كل إلى مكان لتقتل وتدمر وتكسر وتخرِّب، وكانت الأيدي التي تقذف الحجارة أو ترميها كثيرة متنوعة متباينة.

لبست عروق طاقية الإخفاء، وركضت في الشارع الفاصل بين شطري الجزيرة، وتسلقت أسطح البيوت، واستمعت إلى أحاديث الرجال الغاضبين، وإلى الوجوه الكثيرة التي تطوعت للقتل، وبرزت من بعضهم ملابسه العسكرية التي لم يتقن إخفاءها فقد كانت ظاهرة بارزة، وكانت مجموعات الزعيم تعمل بدقة وإتقان وحذر بروح الفريق الواحد المنظم الذي يعرف فيه كل واحد خطواته وواجباته.

بقيت عروق تراقب تلك المجموعات حتى انتصف الليل وخفَّت حدة الاشتباكات، وانتشرت الحرائق في شطري الجزيرة، فركضت إلى الأسوار والجدران وخطت عليها:

"هذه فتنة صنعها زعيمكم الهبر".

لكن أحدا لم ينتبه على تلك الكتابات سوى عسس الهبر الذين ضجوا وارتبكوا وهم يرون الخط يرتسم وحده على الجدران فهربوا إلى الأنفاق خائفين وجلين...

ومنذ ذلك الحين والمعارك متأججة تزيد أوارها بعد كل جدارية تكتبها أيدي العسس، أو منشور تنشره مجموعات "فرق تسد".

ساعة حرة

الجلسة الطارئة التي عقدها الهبر في ساعة متأخرة من ليلة الخميس كانت لإعلان قبوله إعطاء الشعب ساعة حرة يسمح له فيها بمساحة حرة من البوح والتعبير. وقد جاء في البيان الصادر عن مجلس الحكم العالي للجزيرة بأنه "يسمح للمواطنين الشرعيين بالقفز والنط والبكاء والصراخ والغناء والكلام والنشيد والتمثيل كيفما شاءوا ساعة كاملة من صباح أول يوم من كل شهر ضمن الحدود الآتية:

ألا يصل الأثر الإيحائي لعمله أو قوله أو فعله أو صفته إلى كرسي الزعيم

ألا يتعدى المستخدم لهذه الساعة الحرة الوقت المسموح به المحدد من الساعة الثانية حتى الثالثة من صباح الأول من كل شهر.

يمنع إعادة الحدث أو تسجيله أو تصويره أو رسمه أو الحديث عنه أو تمثيله

تبدأ الساعة الحرة بنشيد الجزيرة السامي:

على الراسِ على الراسِ

زعيم جزيرتي الآسي

وحامينا وقائدنا وحامل همنا القاسي
علىٰ الراسِ بغرفته
وهمسته وبسمته
بقائدنا وحامينا
نعم تعلو آمانينا
وقلنا أنت قائدنا فحررها أراضينا
علىٰ الراسِ علىٰ الراسِ
جزيرتنا علىٰ الراسِ
لكم يا فخرنا نشدو نغنيها أغانينا
ونحكي عنكم نحكي بلا كلل ستحينا
ونحن الآن أحرار وأحرار
وأحرار وأحرار

وقد صدر قرار صاحب الزعامة والفخامة صاحب الكرسي العالي بأن تكون الساعة السادسة إلىٰ الساعة السابعة من صباح أول كل شهر ساعة حرة، وقد صدر القرار، ونشر في الجريدة الرسمية:

مرسوم بقانون رقم (14) لسنة الذباب

بإصدار قانون الأيام والساعات

نحن الزعيم الأول لجزيرة الذمار،

بعد الاطلاع على الدستور،

وعلى الأمر الزعيمي رقم (4) لسنة الهبة الأولى،

وبناء على عرض مستشار العدل والشئون القانونية،

وبعد موافقة مجلس الجزيرة،

رسمنا بالقانون الآتي:

المادة الأولى:

تكون الساعة السادسة إلى الساعة السابعة من صباح أول يوم من كل شهر ساعة حرة للمواطنين ليلعبوا ويرقصوا ويغنوا ويطربوا ويشربوا ويأكلوا ويفعلوا ما يشاؤون.

المادة الثانية:

على المستشارين والولاة – كل فيما يخصه – تنفيذ هذا القانون ويعمل به من تاريخ نشره في الجريدة الرسمية.

زعيم جزيرة الذمار

صدر في قصر الحياة

في العشرين من شهر النفخة من عام الذباب.

انتظرت عروق هذه الساعة بشغف لترى إن كانت كلماتها على الجدران قد أثرت في الشعب، وحين حانت الساعة المحددة الموعودة لبست طاقية الإخفاء، ومشت بخطوات واثقة إلى قصر الهبر عابرة الشارع الذي يقسم الجزيرة إلى قسمين يتحيفهما الأعداء، لم تكن بيوت الجزيرة قد استيقظت بعد أو لعلها كانت تتحسس الأمر وتتعسسه، أو لعلها كانت تتوجس خيفة من نوايا العسس وخطط الهبر؛ فهي لم تسمع صوتا فيها ولم تر أحدا فيها، بل لم تشعر بأن في تلك البيوت التي يغلفها السكون ما يشعر بالحياة.

مشت عروق وهي تنقل بصرها بين بيوت الجزيرة المتراصة المرقعة برقع مربعة حمراء، ودخلت القصر، كان كقصر ساساني الشكل والروح، وفيه كل ما يدهش ويسحر، وعلى واجهة غرفة الاستقبال الواسعة كانت لوحة زيتية باذخة الفرح تتوسط الحائط وتصور الزعيم وهو يصرع أحد المعارضين في معركة الفتح ويستولي على قصره.

قال لها أخوها المنذر يوما..."وتحكي الروايات أن الزعيم حين دخل قصر عسار هذا أراد هدمه لكن أحد وزرائه أشار عليه بإبقائه:

" يا مولاي، إنّ في بقائه دليلاً على قوتك وقدرتك وعظمتك وقوة جيشك؛ فحين يراه النّاس سيقولون: هذا قصر الزعيم وهم في هيبة ورهبة ففي بقائه دليل على قوّتك وقدرتك"

ترفقت عروق بخطواتها وتمهلت في نقل جسدها غير المرئي بين أثاث القصر وساكنيه حتى وصلت إلى الزعيم، وتوقفت أمام كرسيه بشموخ لترى عينيه وهما تشتعلان نارا وقلقا وجسده يميع في دوامة من الارتباك، ويداه وهما تتلاطمان بعشوائية التائهين الحائرين الخائفين. ولم تسمع مدة دخولها غرفته سوى سطر واحد غاضب لذلك الذي تقلد سيفه وتزين بأكثر من قلادة ووسام.

"جد لي الطاقية، وأحضر لي الفتاة ميتة أو ميتة، هيا، هيا!"

خرجت عروق من القصر وهي فرحة بما أوكت من نار في قصر الزعيم وقلبه، ومشت في الشارع تنظر يمنة ويسرة علها تجد لافتة واحدة تقول لا للغرفة الحمراء، لا للاستبداد، لكنها لم تر تلك الـ(لا)، ولم تلحظها ولم تسمعها كما تحب وكما تريد.

جذور بحزن: لم أر يا جذور ما نتمنى في شوارع الجزيرة التي امتلأت في آخر الساعة الحرة بالناس، كانت أيدي العاشقين هي العنوان الرئيس في

تلك الساعة، فقد عجت الأرصفة بحوارات الأجساد والعيون والأيدي والكلمات الجائعة العطشى، ولا زالت صورة ذينيك العاشقين وهما يتحاوران عالقة في عينيها بكلماتهما كلها وبأحلامهما كلها...

قال لها:عيناك توقظان الحياة في كلماتي، تعلماننني كيف يكون الرقص نبضا وحرفا، أحبك.

قالت له: دفء عينيك يمنحني الأمان الذي يجعلني أستمر في معاندة واقعي المتعب القاسي، أحبك.

قالت عروق: كم هي الدقائق قاسية إن مرت هذه الساعة كما تمر شمس الصباح من غير أن تأخذ أذيال الليل عن الجزيرة !

وقال شاب متخم بحروف ندية محبوسة معتقة:أحبك، عيناك يا حبيبتي نبعتان من عسل ونحل! سبحان من غسل الفجر في عينيك، وغمس الندى في شفتيك، وأعطى الورد بعضا من روحك، والشذى قبسا من أنفاسك، ليقول لك الدلال هيت لك، فتيهي وتألقي وأشرقي...

وكانت الفتاة تخفي عينيها في عينيه وتقول له: عالقة أنا بين **عينيك بلا بر ولا بحر** هذا البريق في عينيك، حبيبي، يكفي ليرقص الفَراش بأثواب الزفاف ويرقص الكون بأثواب الفرح.

وفوق مقعد خشبي عند سور معتق لحديقة منزل مهجور جلس شاعر بخفة وأناقة ينقل عينيه بين زهرات تكاتفن لرسم لوحة سريالية في حوض حجري ثبت بعناية على قارعة الرصيف كان ينسج بهمسه عباءة من رجاء على أطلال ذكرياته، ويقّلب بقايا نظرات أطلال تعبث بدمه:

نامي هنا فوق الرصيف فلم يعد للبيت نافذة تطل على المدى!

لا تنظري !

ذي صفحة الموت

قولي..أكتفت من لحمنا؟

سقط الطريق عن المقاعد والعيون الشاخصة..

وهنا تقول اللافتة: "أنا لن أعود"

...وتعثرت بالسندباد حكايتي

نامي فقد سكن الوداع على الحروف اليائسة

"قل لي كلامك كله؛ فأنا لن أعود"

عدي المقاعد والحروف ورتبي قصصي المليئة بالوعود...

واستيقظ الشاعر على صدى صوته وسؤالها الطويل في الذاكرة:

– متى ستأتي؟

– تعرفين أن الغرفة الحمراء خنقت بيتنا، وأن الزعيم وحاشيته يسيطرون على مسامات الجزيرة كلها، وأن أيادي كثيرة تحاول سرقة كل ما يومض ويشرق في أعمارنا!

– ما حصل لطلب التعيين؟

– هو مكانه!

– والمقابلة التي أجريتها قبل أسبوع؟

– تدخلت مافيا الوساطة والتهمتها، لكن انتظري قليلا فقد جاءني الفرج!

– كيف؟

وافقت إمارة الصوت العالي على تعييني في وزارة التربية معلما للمرحلة الثانوية !

– ستهاجر ؟

– بل سأذهب للعمل، سأغيب سنة وأعود لأطلب يدك!

...

وهو ينظر إلى الساعة بقلق. بقيت لنا خمس دقائق دعيها تكون لقلبينا

تنظر الفتاة إلى الرصيف الذي عج بأنفاس العاشقين المهرولة مع نبضها الحار، ثم

أمسكت يد حبيبها وهي تتجول بين أسئلة محاصرة بالوقت...

وفي مساحة أخرى على الرصيف كان شاب أسمر بعينين مبرقتين يقول لفتاة مرتبكة قلقة تتلفت مع كل كلمة ونفس: كم تلهفت للقائك! كم انتظرت ساعتنا الحرة لأخبرك عن مدى اشتياقي...!

قالت له بقلق: هل تحبني، هل قلبكَ كله لي....؟

قال لها باندفاع: أنا أعشقك أنا متيم بك... أفكاري لا تسير إلا نحوك، وخطاي لا تعرف إلا طريقك، وبوصلتي تتجه إليك وحدك... حبيبتي، تضيع مني الاتجاهات حين تغيبين!

سألته بحب: ولكن، متى سيجمعنا حلمُنا في واقع له عينان وشفتان وقلبٌ من دم ولحم وحقيقة..؟

لم يجبها بسرعة وردد بينه وبين نفسه: "أخاف من هذه اللهفة التي تشق قلبي... أن تخذلها الساعات القادمة، فالجزيرة محاصرة بالموت من الجهات كلها.

قال لها اصبري قليلا عليّ لأللم بعضي على بعضي، ونفسي على نفسي، وأرتب أفكاري، فالظروف تعاند أحلامنا، ثم التفت إليها وأمسك يدها، وقال بحب وحنان: اصبري فالفرج قريب، سيتخلى الزعيم قريبا عن الغرفة الحمراء لنعيش!

قالت له بيأس: لا تسكت عن كلامك الجميل، أريد أن تكون الستون دقيقة كلها لي، بركان مشاعر يفيض حبا. إنني أفتقد همسك... أتوق للمسات حروفك،..، ثم قالت وهي تنظر إلى ساعتها بغضب: أكره هذه الساعة اللعينة اللئيمة فهي تنظر إلينا بمكر ودهاء، وكأنها تجاكر قلوبنا وتسابق عواطفنا وحبنا...

وفي زاوية أخرى كان رجلان يتهامسان عن الضرائب التي لا يعرفان كيف يتعاملان معها. وفي زاوية بعيدة كان رجل يشكو سوء الحال وعنفها.

تكاثفت الوشوشات والهمسات والصرخات والكلمات في أذني عروق حتى كادت أن ترفع الطاقية عن رأسها لولا أنها شاهدت بين الجموع عسس الزعيم وجنوده. يتابعون كلمات الناس وحركاتهم وسكناتهم.

"ويلي عليكم، بل ويلكم، أليس فيكم من أتعبه هذا البؤس والسواد والقيد وهذا القهر وهذا البطش وهذا الجوع؟

وبينما هي في نار الحسرة تتلوى مع أسئلة متفجرة تتناثر حزنا وغضبا خرت في أذنها وشوشات رخوة:

النبيل يا بنتي: لقب اقطاعي يوصف به من كان من طبقة الحكام فنحن لسنا عائلة نبيلة

فقالت البنت: ولكن يا أبي المعجم يقول غير ذلك؟

فقال لها الأب بابتسامة: جميل، ما يقول المعجم يا سهير!

قالت البنت وهي تفتح المعجم: انظر يا أبي ما يقول المعجم !

- الجمع: نُبلاءُ، المؤنث: نبيلة، والجمع للمؤنث: نبِيلات ونَبَائِلُ
- صفة مشبَّهة تدلّ على الثبوت من نبُلَ
- النَّبِيلُ: الشَّريفُ والجمع: نُبَلاءُ
- نَبِيلُ الأَخْلاَقِ: شَرِيفٌ يَنْتَمِي إِلَى عَائِلَةٍ نَبِيلَةٍ
- هُوَ نَبِيلُ الرَّأْيِ: جَيِّدُهُ
- طبقة النُّبلاء: السادة
- أحد أعضاء طبقة من الأشراف تتمتّع إما بفضل معتدها وإما بإنعام من الملك ببعض الامتيازات والألقاب التي تميِّزها عن سائر المواطنين

دعك يا سهير من المعاجم فهي مضللة وخذي مني الصافي فأنا ابن الجزيرة لا المعجم.

لكنني قرأت في المعجم أن المجتمعات طبقات برجوازية، وبرجوازية صغيرة، ومتوسطة وكادحة، وهي تفتح صفحات المعجم، يمكن تقسيم طبقات المجتمع إلى:

Jon Elster's explanation of Marx's schema of classes.

Social mode of production	**Ruling classes**	**other classes**	**example society**
Primitive communism	No classes		Many pre-agricultural societies
Asiatic mode of production	Bureaucrats or theocrats	[unnamed class]	Archaic Egyptian society
Slave societies	Patricians	Plebeians, freemen, slaves	Ancient Rome
Feudal societies	Lords	guild masters, journeymen, serfs	12th century Western Europe
Capitalist societies	Industrial and financial capitalists, landlords	the petit bourgeoisie, the peasantry, wage labourers	19th century Europe until present

فقال أبوها بحب وإعجاب: يا سهير لم تعد هذه الطبقات التي تتحدثين عنها موجودة في الجزيرة!

واصلت عروق تنقلها بين أطراف الأحاديث، ونقلت خطواتها بخفة بين ثنائيات غارقة في الحب، وأفراد احتلتهم الحياة بما فيها، فتحتَ شجرة صفصاف ضخمة جلس شاعر امتشق خياله وبريق عينيه، وراح يختال بين دفقات تستحم بالغضب والتهديد؛ فقد كان يردد:

قبل قليل

نشر الشارع حبل غسيل

قال وقيل

قبل قليل

ضحك الشارع

صار يميل

غضب الحارس

قال وقيل

نكأ القارئ حبل غسيل

ولما أيست عروق أن يذكر الناس حالهم، والاحتلال الذي يتربص بهم، والزعيم الذي ترئ أنه يتجبر عليهم، ويعمل السيف والعصا فيهم ركضت بسرعة وهي حزينة بين الجموع الفرحة المتلاطمة إلى بيت جذور.

وسارت بخطوات مرتبكة متقلقلة نحو بيت جذور، وكم زادت حزنها أسئلة تقاذفتها ألسنة الجالسين على قارعة الطريق:

- أنقول أجبر بـِ، أم أجبر على ؟
- أتنتهي الساعة الحرة بعد نهاية الساعة أم قبلها؟
- هل سيحضر الزعيم المباراة النهائية ؟
- هل سينزل الراتب هذا الشهر متأخرا كما في الشهر المنصرم؟
- دور الماء على أي حي اليوم ؟

جداريات ذمار

تابع جذور وعروق الكتابة على الجدران والأسوار لفضح أعمال الزعيم، فهما كانا ينزلان قبل كل فجر ليتحسسا الأخبار ويتعسساها، وحين تحين فرصتهما كانا يستغلانها أحسن استغلال، وقد انتشرت أخبار صحيفتهما الجدارية فملأت أخبار جزيرة الذمار.

كتبت عروق على جدران المؤسسات الحكومية، وعلى سور قصر الزعيم، وعلى عرباته العسكرية والخدمية.

وقد ضج الزعيم وحاشيته من هذه الكتابات، فعقدوا اجتماعات متتابعة متواصلة لتدارس الموقف الصعب.

وكم ابتسمت عروق المتدثرة بطاقية الإخفاء وهي ترى الزعيم يحوس ويلوص ويغوص! وحين سمعته يقول في أحد الاجتماعات:علينا التخلص اليوم وليس غدا من هذه العروق، علينا أن نضع حدا لهذه الأيدي التي تعبث بأمن الوطن، علينا أن نخرج من الاجتماع ونحن قد وضعنا الخطط الكفيلة بقطع تلك الأيدي ومحو أخبارها إلى الأبد.

استمرت المشاورات والمجادلات حتى ساعة متأخرة من الليل، واتفقوا فيها على خطوات باتجاهات متعددة منها:الصيادين، والجنود، والبحارة، والأعداء الذين يحتلون الأرض العليا.

وكانت الشعارات بعد كل اجتماع تزداد حضورا وتقترب أكثر من حياة الناس ومعاشهم، وقد جمعتها مجموعة مختصة وسجلتها، ووضعتها بين يدي الزعيم وحاشيته:

"ارحل ارحل يا جزار"

"فليسقط حكم الزعيم"

لا للغرفة الحمراء "

"لا داعي لأن نكون ضحايا وبأيدينا نستطيع أن نكون البذار"

"لا داعي لأن تقف الوردة بين كفي فراشة لتسكب في العين جمالها"

"لا داعي لأن تمطر هذي الغيوم إذا كانت الأرض مثل البحار بلا مرفئ آمن للعتاب"

"لا داعي للخوف من مقلة ترتخي للسهر"

"لا داعي لتجثو الروايات عند يدي صاحب الخيل والحقل والسنبلة"

"لا داعي لتبكي الحبيبة شوقا وفي عينيها طفلة مثقلة لا تنام"

"أنتظر صحوك لأمطر أنا"

"الهبر سبب الفتنة "

"القاتل هو هو الهبر هيو جوا "

حديث الروح

جلس جذور في ساعة من الليل على شاطئ البحر يقلب أوراقا من الذكريات تظل تنفتح على روحه، ويعيد التفكير في واقعه الجديد فهو يريد أن يكون البحر شاهدا على ما يقول أو يكتب.

كانت ورقة خضراء خط عليها وصية أحد معلميه:

قال لي معلمي يوما:"لا تتكئ كثيرا على الحلم الساقط من فراشك الوثير، وامسح عينيك بطرف كم عباءة الروح التي نسجتها لك أنامل أمك ذات يوم، ولا تبتئس إن أوقفت الطرقات سعيها نحوك؛ فانت تسير وحدك منذ ولدت، ولن يضيرك بشيء إن عشت وحدك مرة أخرى".

وهذه المرة صرخ جذور بصوت أيقظ البحر: سأسير سأسير لن أقف على ناصية الطريق بانتظار الفجر، لن أجعل لي نافذة أنظر منها لشمس الصباح وأنا أستطيع أن أقطف الشمس من حضن الجبال!

لم يوقف هذا السيل الذهني من الحث الأخضر في عقل جذور غير موجة كثيفة من أوراق شجر الصفصاف اليابسة الكثيفة التي غطت مساحات واسعة من جزيرة الذمار، وتراكمت في ممراتها المهترئة المتلعثمة بين أفواه الموج التي تلاحقها من الجهات كلها، كان صوت الأوراق مزعجا

مقلقا مؤذيا، بل قاتلا ألجأه إلى كهف يطل على مساحات ممتدة من أرض الشاطئ.

آوى جذور إلى الكهف وغلّق الباب وارتدّ إلى الحائط خائفا قلقا فهو لم ير من قبل مثل هذه الهجمة الشرسة من أوراق الشجر، فكم من مرة هاجمت هذه الأوراق وغيرها الجزيرة ولكنها المرة الأولى التي تحاول فيها خنق الجزيرة بهذا العنف وبهذه القوة والقسوة.

تراكمت أوراق الأشجار على أبواب بيوت الجزيرة حتى غطتها، ولكنها فجأة ومن غير أي سبب، ارتفعت إلى السماء كأسراب الجراد ثم تجمعت وألقت نفسها في الماء...

حديث النفس

مساءات عروق كلها وهي في طاقية الإخفاء حكايات عن البؤس والشقاء اللذين يحتلان الجزيرة، لم يمر مساء عليها وهي في ظلال طاقية إلا وسمعت فيه ما يتعب روحها أو يهز حروفها فمن تلك المساءات ذلك المساء العميق الذي رأت فيه شيخا يتوسد نعليه بعد أن اختار نجمة ليغسل بها ليله العميق، ويغني برقة وحزن شفيف:

المطر بلا هُوية !

والعمر مسرحية

والناس يا ميميتي

ما همها ما فيَّه

فقالت عروق بصوت يهمس من قلب طارد خوف الفيافي، وفي رئتيه يسكن الجوع والخوف، وشققت الشمس ابتسامته: والليل يا شيخ بلا هوية!

فقال الشيخ: بل الليل نهاية المطاف؛ فبعده يجيء الصباح، وفي الليل يا بنيتي ينمو الخيال وينكسر على أعتاب الحلم المستحيل، يا بنيتي على تلال الحلم ينمو العزم وحشيا بلا نظام...

قال جذور بعد أن استفزه إيقاع الأمل العالي في حديث الشيخ: ألا تحبس يا شيخنا في دمك الأسرار؟

وقالت عروق وهي تنظر إلى عيني جذور المكتنزتين بالهدوء العجيب: كم أنا حزينة ألا يكون بيننا أسرار، ألا تخبئ عندي أسرارك وأقلد عينيك وسام النور!

قال جذور للشيخ: ألن يصب الليل عتمته في قلبٍ قوي فيوهنه!؟

قال صوت تغرغر بعيني الشيخ قادم من أعماق الفجر الذي يسكنهما: لم الحزن، ولم الخوف، وكل ما بينكما من أسرار ستأكله الشمس يوما لا محالة !

وضحك الصوت القادم من الفجر ضحكة هزت البحر، وأخرجت الموج من مكمنه، ثم التفت إلى عروق وقال: أي بنية، الخوف بيت الهزيمة ورحّل الفشل والخذلان.

ثم التفت إلى جذور وقال بهدوء العارفين:...ولما كان الأمر الذي يلف الجزيرة أمرا جللا، لا طاقة لدمنا وحده في تغيير مجراه، فقد نظرت في الساحة وأنعمت النظر، ورأيت أن من يحملون السلم بالعرض يسيرون بالجزيرة إلى هلاكها، وإن كان دربهم هو الدرب الصحيح السليم، ولكنهم لا يصلحون ليقودوا شعبا ضعيفا إلى بر الأمان في زمن تناوشته فيه الضباع والكلاب

والغربان. ورأيت فئة قد تنبهت على الخطر، وعرفت الدرب الذي يحفظ الدم والعرض، ومشت فيه، وهي ما زالت تسير مع ما تتلقاه من لطمات وهي صابرة على الظلم والافتراء،احذروا الفئة الضالة التي تتقن التخوين، وتتحسس لكم الأشياء، وتصف لكم الأنواء والأهواء هذا صلب وهذا ماء، وتتذوق لكم طعامك وشرابكم هذا عذب وهذا ملح أجاج، وتحفظكم مجموعة من الشتائم تلبسها من تشاء، فإن خالفتها لتبين ضلالها وفساد أمرها غضبت، وكشفت عما تملك من ضعف الانتماء للجزيرة، وأظهرت ما في قلبها من أنفاس متخمة بالفساد، إن لم تقل ما يقولون وتفعل ما يفعلون وتشتم من يشتمون وتمدح من يمدحون نلت نصيبا عظيما مما لا يملكون غيره ؛الشتم والتخوين...

جذور باهتمام: ولكني أتلطف لكي لا يضل لساني، وأتودد لكي لا أخسر فرصة هدايتهم وأنا في ذلك كالقابض على الجمر...

كان صوت جذور وهو يهمس يصل إلى عيني عروق:

"عبثا أحاول ؛ فلن أستطيع أن أنام وهذه النجوم تسيء مشاكستي، وهبّات الكرى تعاندني كأن صوتا أنثويا كسر في روحي الصمت وتربع على صدري كما يجلس الموت القرفصاء على شفتي المريض، يا جذور، وأنت تمخر

هذا الموج المتلاطم من أصناف البشر، وتتكشف أمامك معادنهم؛ فتنشب فيك مخالب وتربت على كتفك أكف، وتنهرك أفواه وترحب بك أفواه، وتدعو لك قلوب وتدعو عليك ألسنة، وتعينك عيون، وتستغلك رياح، وتظلمك أيد، وتعدل فيك حروف، وتعيش مرة، وتموت مرات...كنت وأنت تلاقي هذا كله موقناً بأن قلبك معك فأنختَ ناقتك حيث ارتحتَ واطمأننت، ولم تلتفت إلى من ظلمك في هذه الحياة، أو استأثر بمغانمها، واستفرد بها أنعم عليه، يا جذور، صبرت ومشيت واجتزت وتجاوزت، ونسيت وتناسيت، وسمحت وتسامحت، وابتسمت لمن كشر عن أنيابه في وجهك يريد رضا الزعيم، وأنت تريد الخير للجزيرة، وها أنت وقفت بثبات على نافذة تحتل رئة الشارع، وأنشدت نشيد الحرية والخلاص، وما في جعبتك غير صوت الغضب".

استطاعت عروق أن تميز من حديث جذور قوله:

فيا قصتي بانقسام العيون إلى مقلتين

وزحف الرغيف إلى ألف حضن يتيم

عرايا هنا فوق صدر اللهب

وموت الغزالة بين السهام

وتحت السياط

وفي غفوة من خيول الغضب

وقد جاء دوري لأسكت كي لا ينام الحمام بغير مكان هنا

وينسى البقية كيف تكون الجراح

وينمو الكلام الرديء على كف سور قديم

ويسقط في البئر لون الحياة

فأين العيون التي ودعتني؟

تعالي هنا

قفي حدثيني

فما عاد في الموج غيري وطعم أنيني

قفي واسمعي قصتي

فبعد البداية سوف تجيء الستائر مثل الجراد

لتغلق هذا الإياب، وتغلق حتى الرصيف، وصوت الشباب، وتمحو من البال نبض الحياة أحاديث هذي العيون أحاديث هذي الكروم مع والذكريات

فبعد البداية يأتي الممات

قالت عروق وهي توقظ جذور من بين همساته ووشوشاته: قل لها أن ترد النهار، قل لهم سنمشي ونمشي، سنقطف ضوء النهار، قل لهم إن من رضي أن يكون ذنبا فسيحيا ذنبا ويموت ذنباً، ويدفن هو أما ذنبه فسيبقى على الأرض ليفتش عن وريثه الشرعي ليتبناه ويرعاه ويهزه.

قال جذور بحزن: ولكن أباك اليوم كان غاضبا منك

فردت عروق بحزم: كنت أعرف أنه سيغضب، وكان يعرف أنني سأقول ما أريد، وأنني سأفعل ما أقول، فقد بنيت حريتي وبألمي وبمعاناتي ولن أفرط بها، أعرف أنه سيقول عني كثيرا ؛ لكن لن يقول عني تراجعت وتنازلت وخنت وبعت واشتريت لأنه يعرف أنني أرى ما يرى، وأقرأ الواقع كما يبدو له وكما تريده النفس، وهو يعرف أنني سأقول في النهاية كلمتي التي بنتها كل مسامة من جسدي وتنفست بها، يا صاحبي إنني أنتمي لروح تمردت منذ زمن على صائدي الأرواح أما سوق النخاسة ففيه مريدوه، وهناك طلبتهم...

تبسم جذور وفي عينيه بريق الإعجاب والحب ثم أمسك يد عروق وقال: فعلا يا عروق لم أقرأ في كتب التاريخ عن شعوب ولدت مشاغبة،

وإنما قرأت فيها عن شعوب صارت تقول (لا) بصوت أعلى مما يقبله حكامها فشدوا فشدَّت

ردت عروق وهي تمسح دمعة طرقت قلبها: ولكنني خائفة يا صديقي فالأحلام تنتهي على حين غفلة وأنا أخشى النهايات..

فقال لها جذور بابتسامة: لا تخافي؛ فأنا بارع في صناعة البدايات.... وبارع باحتواء القلوب، وإن لم يكن لي سلطة على الأحلام والوقت!

قالت عروق بحزن: ولكن الوقت ينافسني فيك والأشياء والأحداث والكتب والعصافير...

تنفس بعمق ثم قال بثقة: أنا لا أخاف، فقولي لي إنك لا تخافين، وإنك لن تغيبي؛ فبغيابك سأغيب وبحضورك سأشرق...

ثم صار جذور يتمتم ويدندن بلحن غربي قديم:

وبي ما ترين شرود عميق

تمر بروحي إليك الطريق

وكل طريق

نعم قد فهمت بأني الصديق

وبي رقصة جامحة

لهمس شفيف غريق

لرقص عميق

وبوح عتيق

قالت عروق بحنان: يا جذور ألم أقل لك إن الأشواق في بحر الانتظار تصدأ

فرد عليها بصوت صافٍ: نعم، تصدأ إن لم تخرج من الصدر، ولكنني أرى عينيك ترسمان عمرا جديدا لي، وتنسجان من حروفي عباءة الجمال والحرية،حبيبتي، هذا المساء لك، فقد استعرت فيه من القمر بعض هدوئه، ومن النجوم ثباتها لأستطيع التقاط هذا العطر القادم من عينيك...

رسالة إلى صابرة

تلك الزجاجة التي كانت تطل بفمها من بين أمواج البحر كانت المفاجأة اللطيفة التي أعدتها شمس الصباح لعروق

"... انزعاج عميق له أظافر متشبثة بأنفاسي كان يحاصرني، وبعيون من نار ودخان أطبق على روحي، كانت الثواني تمر كئيبة كآبة حادة حاولت الإفلات منها ولكنني ما استطعت حتى...

بعيد أنا هنا عن أناي في هذه المدينة الرقمية، أعاني الفراغ وضيق الوقت وتنفجر في صدري في كل لحظة شمس رائحة الحقول، وتعصف بي في كل لحظة ريح صرصر عاتية تغشي دمي بسحابة بركانية من الفقد والحنين لا تتركني الا حين تورثني روحها الرمادية.

حبيبتي للحب في الغربة طعم الخوف والقلق والشوق والأرق، لا ينفع معها طريق النسيم في الغربة يا صاحبة العينين المنقذتين المنجدتين تحتبس العاطفة هزيم الرعد في تثنِّي عاطفة وترقرق دمعة...

الضياع يلفنا هنا؛ فمحمود ابن سمر تزوج امرأة اندفع إلى بحرها بلا قارب تقوده غريزة هوجاء، كنت أظنه يغوص في محاولة يائسة للتسلي والمتعة، أو ليشدد بها أزره وهو يحاول كسر شوكة البعد والاغتراب. ولكنني

مع الأيام وجدته عاشقا غارقا متيما بهذه المرأة ويختبئ خلف جدار الغربة، وهو لم يحاول حتى الإفلات من بين فكي هذا التيه.. فهو كان غشيما، وهي قد بذلت جهدها حتى يدوم هذا الحب ويقوى؛ فأعطته كل شيء، ولم تبخل عليّه بشيء؛ روحها ووقتها، وجسدها وزوجها...

سمعتها تقول له يوما عندما أراك يرقص الدم في جسدي وأنسى ذاتي وزوجي وأهلي وأولادي، وأنسى حتى عمري، فأنا معك أصير طفلة صغيرة تتدحرج بين عامين. يا حبيبي، أنا منذ عرفتك والحياة تحتضنني بحب ورحمة فكن معي واتركني أصنع من حبي لك جناحين لأحوم بهما بين عينيك وخلف خطواتك، ولأتبعك حيثما وقفت، أو مشيت...

أما ابن عمي خليل فقد أرهقته امرأة شقراء عطشى كانت في كل لقاء معه تظهر ظمأ صحراويا يابسا كظمأ مسافر في الصحراء في يوم صيفي تعرت فيه الشمس.

وأما أنا فأعيش صراعا مريرا بين عقلي وقلبي.. كان العقل خصما شرسا للعواطف.. فعقلي يقول لي لا تعد؛ فأنت إن عدت مت فقراً وقهرا، وأما قلبي فيقول لي أنت إن بقيت مت حنينا وشوقا

حبيبتي، ما زلت أذكر ليلة اجتمعنا وثار بنا الشوق إلى المكان الذي كنّا نلتقي فيه، وكيف كنا نتسلل إلى تلك الحديقة الناعسة لنجلس في الزاوية نفسها، يدك في يدي، وعيناك في عينيّ، والكلمات حائرة بينهما...

حبيبتي، توقظ هذه الذكرى في روحي وحشا دمويا يقتات على صوتي ونبضي، وينمو عليهما، وتتأجج في أعماقي نيران الحنين الجارف والشوق الحارق...

حبيبك الغارق بالشوق

سعد الرماني

في الخامس من شهر الغيث من عام الجراد

إلى حبيبها

لم تعرف عروق لمَ انفتحت أمامها رسائل ابنة الجيران التي كانت تخطها لها كل شهر، ولا تعرف لم كانت ما تزال تحفظ كلمات رسائلها كما يحفظ الطفل أنشودة مدرسية:

حبيبي

عندما وقفت أمس أمام المرآة تذكرت ذلك النزف الذي أغرق البحر بأنفاس أبناء الوطن صديقتي سلمى التي قالت لي إنه لا مكان لنا هنا لأن الجرذان أكلت خضرة الحقول ولأن البحر ابتلع أسماكه...

وأنت بعيد هناك تفترش عيناك أيامي، فيا من اقتلعته الغربة من تراب الوطن، وألقته في متاهات بعيدة... أكنت تحلم بحياة أفضل حتى فاجأك الجحيم بكل ما يملك من قسوة؟ أعرف أنك تهت بين ناطحات السحاب، بين الزوايا الإسمنتية القاسية، وأنك تفتش عن بقايا صورنا بين ساعات الفراغ القليلة التي يمنحها لك ركضك خلف لقمة العيش..وأنك صرت تبحث عن حياة لم تعد تذكر ما هي؛ فقد أُنسيت لونها وطعمها ولغتها..

حبيبي، وأنت تجلس على شواطئ الغربة تحطمت تلك اللحظات الجميلة، وتكسرت تلك الذكريات وابتلعني الانتظار، ولم أعد أسمع غير صوتك المعتق في الروح وهو يقول لي: سأعود..

حبيبي، لا تفكر ولو خلسة بالعودة وأنت تطوي الأيام في عنق الغربة متسللاً...

نسيت أن أسألك: أأتاكم نبأ الزعيم وهو يبحث عن العزة والكرامة في ممرات الأمم المتحدة على حين غرة.. هل تعلم أن قطتي« أو أو» الآن أرملة، وأن الجزيرة الآن ليست الجزيرة التي تعرفها، وأنك ولو مشيت في مرافقها المختلفة، لوجدت أن عسس الزعيم هم الطبقة السوبر.. يكيّف لهم الهواء.. وتظللهم مظلات البحر، وتُغسل لهم الشوارع.

أحبك...صابرة

اختفاءات

سمعت عروق وشوشات أبيها وأمها عن اختفاء مجموعة من الفتيات اللواتي كن يمشين على شاطئ الجزيرة فأرعبتها قصة الاختفاء وحيَّرتها؛ فهي لم تسمع من قبل عن اختفاء أحد من أبناء الجزيرة، واستقبلت لذلك كلمات أمها وتعليماتها بهدوء وبلا مناقشة أو جدال، فعرفت أمها أن الوشوشات قد ذاع خبرها فقالت: يا عروق، نحن نحبك! فقالت عروق وهي تمسك بابتسامة أمها الشفيفة: ما قصة الفتيات اللواتي اختفين يا أمي، وما معنى أنهن اختفين؟ لما رأت أم المنذر القلق يتراقص بين عينيّ ابنتها احتضنتها وقالت لها: الاختفاء يا عروق هو الغياب من غير سبب معروف، هل حكيت لك قصة اختفاء العاملات في مملكة النحل؟

فأجابت عروق بالنفي، فقالت لها أمها: يا عروق كان يا مكان في سالف العصر والزمان مملكة للنحل اسمها مملكة العسل الأسود، وكانت تشتهر بعسلها الجبلي اللذيذ الذي يحبه البشر في القرية المشرفة على الغابة، وتحبه حيوانات الغابة، وأهل الممالك الأخرى المجاورة، كانت العاملات يسافرن مئات الكيلو مترات لجني الرحيق لصناعته، ويفتشن له عن أجمل الأزهار وأكثرها شذا، وكان من بينهن عشر عاملات نشيطات جميلات محبوبات

يعرفهن أهل المملكة ويحبوهن، وينتظرون وصولهن بشغف ليلقوا عليهن التحيات، ويرسموا أمامهن لوحات صادقة من الابتسامات، وفي يوم من الأيام خرجت العاملات للبحث عن الرحيق، وللتفتيش عن الأزهار الجميلة المزهرة العاطرة الفواحة الشذا، وجاء الليل والعاملات لما يرجعن من مشوارهن اليومي فضجت المملكة، وعم الحزن والقلق أرجاءها، وسيطر الصمت المطعم بالخوف على عيني الملكة، فهمت النحلات بالخروج للبحث عنهن لكن الملكة منعتهن وقالت لهن بحزم إن الصباح رباح، وإن حاطب الليل لمغامر أهوج، والصبح قريب، فلننم ليلتنا وفي الفجر ننطلق للبحث عنهن.

غردت الطيور والعصافير معلنة عن صباح جديد، ووقفت الديكة على أغصان الشجر تفتح نوافذ الصباح، وغنت العصافير ألحانا حزينة النغمات، وخرج النحل لاستقبال الصباح وجمع رحيق الزهور لصناعة العسل الأسود اللذيذ الشهي، وللبحث عن العاملات اللواتي لم يرجعن.

وقفت ملكة النحل بثبات وقوة وقالت:

علينا اليوم أن نثبت أننا لا نتخلى عن أخواتنا، فلنبحث عنهن في كل مكان ولنسل كل من نراه: الحيوانات والحشرات وحتى إن استطعنا سألنا

الإنسان، سنطلب مساعدة الحيوانات التي تعشق عسل النحل لتفتش معنا لكي تحصل على حصتها من عسل النحل الطازج

وقفت الحيوانات كعادتها أمام خلية النحل تنتظر حصتها اليومية من العسل الأسود الشهي، ولكن الفراشات أخبرتها بأن النحل خرج للبحث عن العاملات المفقودات فصدمت الحيوانات وحزنت حزنا شديدا وقررت أن تبحث عن النحلات المفقودات، واتفقت الحيوانات جميعها على ضرورة معرفة أين اختفت العاملات، وانتشرت في الغابة للبحث عن العاملات المفقودات.

وبعد أيام طويلة من البحث والتفتيش والمراقبة عرفت إحدى النحلات أن الإنسان هو الذي اختطف العاملات، وأنه يحتفظ بهن في بيت زجاجي، فركضت إلى الملكة وأخبرتها بما رأت، فغضبت الملكة، وأمرت بمنع الإنسان من أخذ حصته من العسل حتى يعيد العاملات، وقالت للحيوانات التي اجتمعت لتدارس الموقف: عجيب هذا الإنسان أيرمي الحجارة في البئر الذي يشرب منه!

كان قرار الملكة بمنع الإنسان من أخذ حصته من العسل صارما، وقد نفذته النحلات بقسوة وقوة وإصرار، وساندتها الحيوانات وساعدتها فما

استطاع الإنسان الوصول إلى خلية النحل منذ قرار الملكة، لأن النحلات واجهته بحرابها، ولأن بقية الحيوانات هاجمته من كل جانب، ومن تمكن من الوصول إلى خلية النحل من البشر لم يلق عسلا لأن الملكة أمرت النحل بتخزينه بعيدا عن الخلية وتوزيع الفائض على الحيوانات.

عرف أهل القرية أن أمراً ما أزعج النحل وهيَّجه وأغضبه فبحثوا وبحثوا وفتشوا، ولكنهم لم يهتدوا إلى السبب.

وفي يوم من الأيام شاهد أحد المزارعين أسرابا من النحل تتجه إلى بيت طيني في طرف القرية فتبعها حتى استوت على غصن يطل على نافذة علق إلى جانبها بيت زجاجي صغير، فأسرع إلى ذلك البيت وطرق الباب فخرج له رجل طويل ضخم وسأله بجلافة وقسوة وخشونة: ماذا تريد أيها الفلاح؟

فقال له: أنت احتجزت عاملات النحل في البيت الزجاجي، وأنت تعلم أنها هي من تصنع العسل، وأن غيابها عن مملكتها سيحرمنا من حصتنا من العسل!

ضحك الرجل الضخم وقال للفلاح: هيا ارحل من هنا قبل ان أركلك بعيدا.

أخبر الفلاح أهل القرية بما حصل معه، وبما شاهده في بيت الرجل الضخم، فغضب أهل القرية، وقرروا مقاطعة الرجل، ومنعه من عبور طرقات قريتهم.

حاول الرجل الضخم القاسي أن يدخل القرية لشراء الخضار ولكن أهل القرية منعوه وقالوا له: أنت حرمتنا من العسل ونحن سنحرمك من زيارة قريتنا ! فعاد الرجل الضخم إلى بيته حزينا غاضبا.

وفي اليوم الثاني حاول الرجل الضخم دخول القرية لكنه واجه مقاومة أشرس وأشد فعاد إلى بيته حزينا غاضبا يشتم ويركل الأشياء في طريقه.

راقب النحل عمل أهل القرية وأخبر الملكة بما حصل، فَسُرَّتْ لموقفهم، وأمرت بفك الحظر عنهم، ولكن أهل القرية لم يحاولوا الوصول إلى خلية النحل، وظلوا بعيدين عنها لا يقربونها، وفي اليوم الثالث جاء الرجل

الضخم ومعه البيت الزجاجي الذي فيه النحلات، وقال لهم بود وترحم: خذوها لا أريدها...

حمل أهل القرية البيت الزجاجي الذي فيه العاملات إلى الغابة وعند خلية النحل فتحوه لتنطلق العاملات بفرح إلى مملكتهن.

فرحت خلية النحل بعودة العاملات النشيطات ورقصت وغنت، وأقامت الحيوانات في الغابة حفلة كبيرة ابتهاجا بعودة العاملات، وعادت خلية النحل إلى نشاطها وعملها وصناعتها وهي فرحة لأن من شرب من عسلها لم ينس المعروف...

لكن مسلسل اختفاء الناس في الجزيرة بات أمرا مقلقا مزعجا؛ فقد تردد صدى صوت أم خلف وهي تستطعف الموج ليهدأ وتسترحم الصواري لتقول لها ما ترى في الأفق، وتستنطق الطيور المتشبثة بالشاطئ وتسائل حباب الماء عن ابنها الذي اختفى ذات يوم ربيعي وانقطعت أخباره ولما يعد...

وقد نقلت مجلة الجزيرة قصة اختفاء الطالب الجامعي خلف البالغ من العمر ثلاثة وعشرين عاما في شهر النفخة، وقالت في التقرير أن الشاب قد

حمل معه أمتعته جميعها حتى سلحفاته، لكنه لم يخبر أحدا عن وجهته. كانت بقايا قاربه تراقص بقايا أسماك وأشياء بحرية كثيرة غريبة على وقع رقصات الموج مع رمال الشاطئ، وقد تناثرت جميع أغراضه بلا أي أثر لجثته أو سلحفاته. ولعل ما كتبه واحد على سور البلدية بعد أسبوع من اختفاء خلف يعد الحدث الأبرز في الجزيرة تلك السنة، فقد كتب على السور:

خلف ما مات، خلف ما مات، خلف محجوز مع البنات

وفي كانون الأول من العام نفسه، اكتشفت مجموعة أطفال جثة مشوهة لذكر في العشرين ملقاة على شاطئ ناء جنوب الجزيرة، وقد كثرت الأسئلة عن هذه الجثة حتى أكد الطبيب الشرعي أنها جثة خلف، فازدادت الأسئلة عن خلف، وبخاصة عندما سحبت أيد مجهولة الجثة بسرعة إلى جهة مجهولة ولم تترك سوى قطعة معدنية يعلقها أهل الجزيرة في أعناقهم ويحفرون عليها رموزا وأرقاما تشير إليهم، ولكن غموض القضية ازداد بعد اكتشاف تلك القطعة المعدنية المحفور عليها بخط سيء (عطار عرفان العدول/ "تمام شد"، "النهاية" 660664). وبعد السؤال والبحث والتحري عن عطار وأمره وأهله وجد أهل الجزيرة أنه رجل من غربي الجزيرة ترك أولاده وزوجه، ورحل منذ عشر سنين إلى وجهة غير معلومة.

وفي السنة التالية، اختفت أمه وهي في طريقها إلى الشاطئ لتستنطق البحر وأمواجه، ولم يبق من أغراضها سوى مفاتيحها وحقيبتها المليئة بالمناديل.

تقرير

مسلسل الاختفاءات خطرٌ داهم أطلّ برأسه المشوه بلا إنذار، وقضّ المضاجع، وأرّق الأجفان، وخلق حالا شرسة من الخوف والقلق والارتباك، وجعل أهل الجزيرة يلزمون منازلهم، ولا يسمحون لأبنائهم بالخروج منها، واتخذوا لحماية أبنائهم وبناتهم إجراءات صارمة ففي تنقّل أطفالهم إلى المدارس أو اللعب في الميادين، بعد أن أصبح اللهو في جزيرة تطوّقها الأزمات كما السوار للمعصم خطر حقيقي. ولسان حال أهل الجزيرة يسأل:«أين الزعيم؟».

ويبدو أن اختفاء المواطنين في الجزيرة ليس بالأمر الجديد، لكن ما استجد هو تطوره وانتقاله من مستوى الخبر العابر إلى مستوى الظاهرة.

فمنذ مطلع عام الجلجلة أصبح اختفاء المواطنين طبقاً يومياً على مائدة الأخبار في صحف الجزيرة يفجّر الخوف والهلع في نفوس أهلها، ويضاعف حال الاستنفار الشعبي الأمني لمواجهة الخطر.

غياب الإحصاءات

...وتشير الناشطة الاجتماعية رحمة السنوسية إلى أنّ الاختطاف هو السبب الأول للاختفاء، وأن«بعض عمليات الخطف التي تعرّض لها أطفال جزيرة الذمار في السنتين الأخيرتين ترافقت مع أحاديث عن وجود «مافيا» تجارة الأطفال، وأحاديث كثيرة عن انتزاع أعضائهم، الأمر الذي أغرق حارات الصيادين التي كانت مسرحاً لعمليات الخطف بإشاعات كثيرة نشطت فيها مخيلات الرواة والحكائين؛ فقد نسجوا قصصا مليئة بمشاهد مرعبة فيها بقر للبطون، وقلع للعيون، وتمثيل بالأجساد، واغتصاب، وجثث لمشوهة مقطعة ملقاة في مكبّات النفايات..

وأشارت رحمة إلى عدم وجود إحصاءات رسمية، أو دراسات نظرية أو بحوث ميدانية عن عمليات اختفاء الأطفال أو اختطافهم.

ووفق ناشطين في جمعيات تُعنى بحقوق الإنسان، فإن أسباب شيوع هذه الظاهرة تعود إلى عوامل عدّة لعل أبرزها: حال الانفلات الأمني على أطراف الجزيرة، واستقواء المجرمين بعائلاتهم الممتدة يدها على الدولة

والقانون، وأن حلّ المشاكلات الأمنية والتجاوزات أصبح عن طريق التراضي العشائري في ظلّ ضعف سلطة القانون.

وأكدت رحمة أن الاختطاف في جزيرة الذمار بات واقعاً ملموساً في الجزيرة، ولا يمكن لأحد إنكاره، وأنه يطغى بأثره على حوادث سرقة القوارب وشباك الصيد.

وأما الناطق الرسمي فيرى أنها كقضية سرقة القوارب لا تعدو كونها حالات فردية قليلة لا تشكّل ظاهرة أمنية تستحق الدرس والبحث أو التعليق.

سباعيات

ويبدو أن الأخبار التي تحدثت عن سكان جزيرة الذمار كانت كلها صحيحة؛ فبعد السابع من شهر الصرخة من عام الزلزلة تغيرت عقول الناس هناك، وبدأت ملامحهم تتغير أيضا، ولكن لم يكن أحد يتوقع أن يصبح للذكور سبع أعين، وسبعة قلوب وسبع آذان، ولم يكن أحد يتخيل أن تصبح نساء الجزيرة كلهن على هيئة فتاة في العشرين لا يهرمن، ولا يسمن، ولا ينحفن، ولا تتوقف أنوثتهن عن العطاء...

وسألت عروق أمها ذات يوم عن سبب هذا الخلود الجزئي لنساء الجزيرة؛ فأجابتها بزهو وفخر:

يا عروق، بعد أن احتلت الأشباح الأرض العليا، وطردنا من بيوتنا، ولجأنا إلى الجزيرة حدث أمر عجيب لا يمكن وصفه، ولكنني أذكر بعض مشاهده فقد تحولت السماء إلى وردة كالدهان، وزلزلت الأرض زلزالها وأخرجت أثقالها وبدأت غيوم سوداء بالتكاثف حتى غطت المدينة، وبدأت رياح عاصفة صرصر عاتية تضرب بيوت الجزيرة، وتسحب رمال الشاطئ، وتلطم بها الجبال، فدمرت مراكب الصيادين، وحطمت كل ما علا في الجزيرة وارتفع عن الأرض، وفجأة ومن غير إنذار، ولا أي إشارة انشقت

أشجار الزيتون والنخل والتين عن مخلوقات نورانية صغيرة لاحقتنا وابتلعتنا، فوجدنا أنفسنا في الصباح عراة على الشاطئ، وأما الرجال فلم نسمع عنهم خبرا، ولم نر لهم أثرا، وظلوا في سراديب الغياب أكثر من شهرين حتى جاء يوم وجدناهم حفاة عراة على الشواطئ يبحثون عن أسمائهم وألقابهم وأصولهم، وكانوا على الصورة التي ترين أباك عليها، بسبع عيون وسبعة قلوب وسبع آذان..

فقالت بدهشة: هل أفهم من ذلك أنهم كانوا بعينين اثنتين، وأذنين اثنتين وبقلب واحد، كما هم البشر!

- نعم نعم !

لم تكن عروق في ذلك اليوم قادرة على إكمال الطريق إلى بيتها تحت أشعة تلك الشمس الحارقة، فجلست على عتبة بيت مهجور يتوسط شارع المدينة الرئيس، وصارت تراقب المارة وتتابع أحاديثهم، ومساوماتهم الكثيرة المعبأة بالرجاء والإلحاح والفقر، وكم حزنت حين رأت مجموعة من الرجال بلباس البحر التقليدي أثقل العمر أقدامهم وأحنى عتي العمر ظهورهم، وهم يفتشون عما ثقل وزنه، وقلَّ سعره، فسألت عروق أمها عنهم، فقالت لها إن هؤلاء هم المنحوسون.

فسألت عروق بدهشة وتعجب: ومن هم المنحوسون يا أمي ؟

ضحكت أم المنذر من إلحاح عروق وكثرة أسئلتها، وقالت لها بلطف وحب وبصوت شفيف رقيق: المنحوسون يا عروق هم بحّارة رفضهم البحر وطردهم

فسألت عروق والدهشة تملأ عينيها: وكيف فعل البحر ذلك، ولِمْ؟

فقالت أم المنذر بنهم: المنحسون يا عروق، هم من ركبوا البحر فأغرق مراكبهم، ثم ركبوه فأغرقها، ثم ركبوه فأغرقهم، فرفض الصيادون أن يركب هؤلاء البحر معهم مرة أخرىٰ!

فقالت عروق بحسرة وحزن وبكثير من الإشفاق:ومن أين يأتي المنحوسون بالمال ليطعموا عائلاتهم؟!

مسحت أم المنذر دمعة عروق، وقالت لها بحنان: هناك من كفلهم وعائلاتهم!

وعلىٰ الجهة المقابلة من الشارع رأت عروق رجالا أغمضوا أعينهم وجلسوا في حلقة حزينة صامتة فأشارت إليهم مستفهمة متعجبة من حالهم.

فهمت أم المنذر ما تريد ابنتها المشاغبة فقالت: هؤلاء يا عروق، في جلسة محبة للبحر، ثم شدت على كف ابنتها لما رأت تقلب وجهها وبريق عينيها.

وعرفت إنها تسأل عن معنى محبة البحر؛ فقالت لها بحنان: يا عروق هؤلاء، يجتمعون على فكرة حب البحر، ليرسلوا جميعا في آن واحد تحية أو أمنية للبحر...

فرفعت عروق رأسها بدهشة وقالت لأمها: وهل يستجيب البحر يا أمي ؟!

تابعت عروق أقدام الناس وهي تتزاحم في السوق، وأربكتها عيون الرجال الكثيرة المتنوعة المختلفة المشتتة التي ينظرون بها إليها، وتلك الآذان الكثيرة التي تتناثر في رؤوسهم بصورة عشوائية.

كانت تستطيع سماع نبضات قلوبهم من مكانها:

"أيعقل أن تكون لهم سبع عيون ولا يرون واقعهم، أيعقل أن تكون لهم سبع آذان ولا يستطيعون سماع كلمة الحق، أيعقل أن يكون لهم سبعة قلوب ولا يوجد فيها مساحة لحب الحياة".

وفي ممرات السوق وشوارعه مشت عروق صاحبة القوام الممشوق والجسد اللطيف المخصَّر والبشرة القمحية الصافية النقية النضرة، والعينين الزرقاوين، والشعر الخيلي الأسود الفاحم كانت تضع فوق رأسها وردة حمراء وفي يدها كانت الإسوارة الحديدية تلمع برقة حينا وبغضب أحيانا فهي تشير إلى أن عروق قد غدت أنثى كاملة صورة مطابقة لصورة أمها، لا يستطيع أحد أن يعرف أيهما الأم من البنت، ولولا إشارة الأمومة التي تضعها الأمهات لينمزن عن بناتهن والإسوارة التي تلبسها البنات لينمزن عن أمهاتهن لاختلط الأمر على رجال الجزيرة، فقد صدر أمر الزعيم بأن تضع كل أنثى بالغة رقما على صدرها يميزها عن غيرها، وأن تحصل كل أنثى في الجزيرة بلغت السن القانونية على رقمها التعريفي الرسمي من دائرة النفوس النسوية، وألزمها أمر الزعيم أيضا بوضع ذلك الرقم دائما على صدرها، أو إسوارة في معصمها وأوعد كل من تخالف هذه التعليمات سهوا أو عمدا بالويل والعذاب والعقاب يبدأ بمئة جلدة.

وقد وفّرت دائرة النفوس لوحات الأرقام المعدنية، وهي تبيعها بثمن بخس خدمة لنساء جزيرة الذمار.

قالت عروق لأمها بصوت هز السوق الممتد مع الشارع الرئيس: هل يرى الرجال بعيونهم الكثيرة ما أراه أنا بعيني هاتين ؟

التفتت إليها أمها وقالت: لا أدري يا عروق !

فوقفت عروق أمام أمها وقالت متسائلة: وهل يحملون في قلوبهم الكثيرة حبا بحجم حبي لك يا أمي ؟

فاحتضنت أم المنذر ابنتها، ثم سارا معا في الشارع الرئيس الذي يقسم الجزيرة إلى شطرين.

حركشات

لم تعد فكرة العودة إلى البيت تراود عروق؛ فهي تعرف أن العيون تتابع حركات أمها، وتعرف أن الزعيم لن يهدأ له بال إلا حين يسترد طاقيته، وهي تعلم أيضا أن الهبر إذا استعاد السيطرة على الطاقية سيطغى ويتجبر ويتكبر، لكنها في ذلك اليوم قررت أن ترى كيف توزع العسس حول بيتها، وتراقب ما ظهر منهم وما بطن. وقد حاول جذور منعها، ولكنها أصرت. وهو يعرف أن إصرارها لا علاج له.

لبست عروق طاقية الإخفاء، ومشت عبر الزقاق المؤدي إلى الشارع الرئيس، وما هي إلا بضع دقائق حتى كانت في مواجهة مع السوق والناس وجها لوجه، ومشت بين الناس محاولة ألا تصطدم بهم أو تحتك، وألا تلفت إليها النظر، و بحذر شديد طوت قدماها الشارع بين عيون كثيرة وأجساد أنثوية متشابهة، وكم من مرة حسبتهم ينظرون إليها، أو يرونها! وكم من مرة لوحت بيدها وأشارت إلى أحدهم لتطمئن أنه لا يراها ولا يلتفت إليها! وكم من مرة وقفت أمام مجموعات من الرجال ولوحت بيديها لهم! كانت عروق بعد كل تجربة تشعر بارتياح واطمئنان أن طاقية الإخفاء تقوم

بواجبها، وأنها تحتها بأمان ولن يشعر بوجودها أحد، لتكمل مشوارها وتسير في طريقها بثقة وثبات، وهي اليوم تقصد بيتها.

كان أبوها جالسا على عتبة البيت وهو يضع وجهه بين كفيه كعادته،، وحوله كانت أعين العسس قد تقاسمت المكان بعد أن طلته كله باللون الأحمر.

فكَّرت عروق بأمر يبعد هؤلاء العسس والحرس وعيونهم المبرقة الكثيرة عن بيتها فرأت أن أفضل وسيلة لذلك هي بمهاجمة قصر الزعيم الهبر، لكنها قبل ذلك شاكستهم وأربكتهم، فقد تمشّت بينهم، وعبثت بأغراضهم وأشيائهم وأدواتهم، وربطت من نام منهم إلى سريره أو عقدت له خيط حذائه، أو رسمت على وجوه بعضهم علامات تعجب أو علامات استفهام، وحين استفز أحدهم أباها وسخر منه لطمته لطمة تطاير منها شرر عينيه فظن أن زميله القريب هو من ضربه فردها له، ودارت بينهما معركة حامية الوطيس سالت فيها دماء وسقطت فيها أسنان، فأعجب عروق هذا الأمر، ففعلت مثله بغيره فكسرت عصي ورؤوس ومقاعد وألقيت حجارة، وتناثر زجاج في كل مكان، وسالت دماء وبكت نساء... راقبت عروق ذلك

كله فأدهشها أن عسس الزعيم لا يعرف عما يبحث، وأنه لم يكن على علم بالطاقية وأسرارها.

ومضت عروق في طريقها إلى القصر تاركة وراءها معركة حامية الوطيس فقئت فيها عيون وقطعت آذان وشتمت فيها مقامات...

كانت أبواب القصر مقفلة منيعة، وعلى أسواره العالية توزع الحراس بكثرة ومعهم كلابهم الضخمة الشرسة، وكانت أسوار القصر عالية حصينة فلم تستطع عروق أن تتسلقها، فجلست عند بوابة القصر تفكر وتنتظر الفرصة المناسبة للدخول، ولم يطل انتظارها فقد أطلت من بعيد عربة عالية ضخمة تجرها الخيول، فدخلت معها إلى فناء القصر، وبثقة وثبات دخلت القصر مرة أخرى ففاجأتها أصوات الكلاب ومحاولاتها للنيل منها، فعرفت أن الكلاب تراها فتراجعت إلى مطبخ القصر وبقيت هناك تراقب الطباخين حتى حان موعد الغداء، وهناك عرفت أن هذا الذي أمامها هو طعام الزعيم فسكبت فيه علبة (الشطة)، ووضعت الملح في كؤوس الشراب، ونثرت الكثير منه على الطعام.

حملت العاملات الطعام إلى المائدة فسارت عروق بينهن ومعهن حتى لا تنتبه الكلاب، ودخلت إلى حيث جلس الزعيم ووقفت خلف رأسه. وعلى

أقصوصة من الورق الأحمر كتبت "مررت من هنا ورحلت، وبعد حين سترحل أنت "ووضعتها في صحن أمام زوجة الزعيم.

"ليتك معي يا جذور لترى ما أرى! ها هو الهبر بلحمه وشحمه أمامي، ها هو أصلع حتى التماهي مع البلاط، وعريض المنكبين، له آذان صغيرة كثيرة لما تنمُ، وعيون متراصة كأنها أسنان المشط، وهو سارح صامت مرتبك".

أشار الزعيم بيده للساقي فشرع بسكب الشراب، وشرعت الخادمات بسكب الطعام...

لم تكن وجبة هانئة تلك التي تناولها الزعيم، فقد رافقها صراخ وتهديد ووعيد وأوامر ونواهٍ...

انسحبت عروق من القصر وهي تعرف أن الزعيم في أضعف حالاته؛ فهو مرتكب قلق لا يعرف إلى أين المسير..

رجعت عروق إلى بيت جذور، وقصَّت عليه ما جرى معها، وتحاورا وتشاورا وتجادلا وتخاصما وتصالحا، وتعاهدا وتوافقا وخططا معا لما سيفعلان، وما ستكون خطوتها التالية.

في تلك **الليلة** لبست عروق طاقية الإخفاء وخرجت على غير هدى تريد الشارع والناس، ومشت بخطوات سريعة عجولة في زقاق الحي المتاخم للميناء، وكأنها تهرب من كابوس متوحش من القهر والرفض...

كانت في ذروة انفجار الغضب فيها حين استوقف خطوتها السريعة التائهة الهائمة صوت أنثوي يستعجل طفلة صغيرة تحمل حقيبتها المدرسية بعناء واضح.

- هيا، تأخرت!

- ماما، أتركيني أذهب وحدي!

- لا لا، حوادث الخطف انتشرت ولن أتركك ما حييت !

تمسك الأم بيد ابنتها وتسيران بخطوات ثابتة في الشارع الرئيس.

لا تعرف عروق لم لحقت بهما وتبعتهما ومشت بينهما، لعل قلبها هو من قال لها اتبعيهما فتبعتهما، فهي تتبع قلبها وإحساسها وتطيعهما. وفي الطريق قالت الطفلة لأمها: سمعتك البارحة تقرأين بصوت عال ؟

- نعم، كنت أقرأ لشاعر من العصر البترولي اسمه أحمد البخيت قصيدة رام الله:

- وما هي رام الله ؟

- إنها مدينة قديمة سكنها العرب، وعمروها وكانت مركزا سياسيا لمقاومة الاحتلال

- لا أعرفها !

- ألا يحكون لكم عنها في كتب التاريخ؟

أجابت الطفلة باستغراب: لا لا!

ولم تمشيا سوى بضع خطوات حتى توقفت الطفلة الصغيرة مرة أخرى وقالت لأمها وهي تنظر إلى الغيوم المتزاحمة في السماء:ماما، أتمنى أن أصير غيمة !

تسمرت الأم خوفا من أمنية ابنتها وسألتها بحنان: لم؟

امتدت الدهشة إلى قدمي عروق وعينيها، وانتظرت بلهفة ما ستقول الطفلة الصغيرة

نظرت الطفلة إلى عيني أمها وقالت: لأطوف العالم وأزور الأرض العليا أرضنا المحتلة!

سألتها الأم وهي تنظر إلى السماء: وهل ستأخذينني معك؟

قالت الطفلة بحب: نعم نعم. فأنا أحبك يا أمي وسآخذ أبي وأخي وقطتي.

احتضنت الأم ابنتها وقبلتها، وسارتا بخطوات سريعة إلى المدرسة عبر زقاق ضيق مليء بالحفر.

كانت روحُ ابتسامة شفيفة تتوزع بين الفتاة وأمها تملأ طريقَ عروق وهي ترافقهما إلى المدرسة.

تذكرت عروق وهي تطارد الحياة في خطوات طفلة وأمها أنها قالت لأمها يوما الكلام نفسه،

وأن أمها يومها سألتها بحب:أتحبين الغيوم يا عروق؟

وتذكرت أنها أجابت أمها حينها: نعم، حين تبكي، وحين تتشكل بأشكال !

ولما سألتها أمها إن كانت الغيوم تبكي أجابت بأن الغيوم مثل البشر تبكي وتفرح، وأن المطر هو بكاء الغيوم.

قالت عروق بصوت عال:الغيوم مثل البشر إذا جرحناها تبكي

توقفت أم الطفلة لترى ما قالت ابنتها، ثم هزت رأسها بثقة وقالت:**لا يجب أن تجرح نفسك لتفرح الآخرين**...

وعند بوابة المدرسة وقفت الأم لتودع طفلتها، ولكن الطفلة استمرت في إغراق اللحظات بالأسئلة:ماما من جعل الزعيم زعيما ؟

نظرت عروق إلى عيني الأم بحزن فرأت علامات الارتباك والخوف تحومان فيهما، ولم تجب الأم وأشارت لابنتها بإصبعها أن اخرسي، لكن الطفلة لم تتوقف وإنما وجهت لأمها سؤالا حارقا آخر:

هل تحبين أن تكوني زعيمة ؟

أجابت الأم بسرعة وبجفاف:لا لا !

احتضنت عروق السؤال وقالت: أما أنا فنعم!

قالت الطفلة: ولا أنا يا أمي، لن أقبل لأنني أريد أن أعيش بلا خوف أو قيود، فأنا لا أطيق العيش بقوانين صارمة...ولكن!

رأت عروق كيف **عطَّل الخوف دفق الرغبة**...

ودّعت الأم ابنتها، وأما عروق فدخلت مع الطفلة الطالبة إلى الغرفة الصفية، ووقفت في الزاوية القريبة من الباب، ومن هناك راقبت الطالبات وهن يحاولن لحاق الدقائق قبل أن تدخل المعلمة، وعندما دخلت قامت الطالبات فألقت المعلمة عليهن التحية فردت الطالبات بأحسن منها.

مشت المعلمة إلى السبورة وكتبت: هل تتمنين شيئا، ما الذي تحلمين به، ما هو طموحك ؟

ورفعت الأصابع، وتنافست الأيدي للكلام؛ قالت إحداهن إنها تتمنى أن تأكل لحم حوت، وقالت أخرى إنها تتمنى أن تسكن في قصر عال، وقالت أخرى إنها تتمنى أن يصبح شعرها أجعد، وتتابعت الأمنيات، وتكاثرت، وازدحمت الغرفة بها، ولكن تلك الأيدي وتلك الأصوات صمتت، بل بهتت فجأة عندما قالت إحداهن: أنا يا معلمتي أتمنى أن أركب غيمة، وأتمنى أن أصبح الزعيمة...

ارتبكت المعلمة وقالت: ساهرة، يا بنات، لم تقصد ما قالت، وأرادت أن تقول وزيرة!

ولكن الطفلة الصغيرة التي سارت وأسئلتها وأمها وعروق وقفت بقوة وإصرار وقالت: لا يا معلمتي، أنا أتمنى أن أصبح الزعيمة، وأن أصبح غيمة! لأطوف الدنيا وأعرف أحوال الناس!

قالت المعلمة بارتباك:اليوم سنقرأ قصيدة جديدة لشاعر الجزيرة المبدع زقاق المدق

على طلل البيوت نصبت قلبي وفوق الغيم جمّعت السحابا

وهذا العمر أيام وتمضي وبعض العمر لا يسوى الترابا

خرجت عروق من المدرسة وهي تحاول لملمة أمنياتها وترتيبها وتضع لها حدودها الزمنية.

" في الصف الأول تمنيت أن أكون معلمة، وفي الصف الثاني تمنيت أن أصبح مديرة، وفي الصف الثالث تمنيت أن أصبح غيمة، وفي الرابع كنت قد أحرقت أمنياتي، وألبستها الخلاص من الغرفة الحمراء".

البحث عن اللا شيء

محاولات المجموعات الخاصة التي شكلها قائد حرس الجزيرة بأمر من الزعيم لملاحقة اللاشيء أتعبها السير في الزقاق، وحول المؤسسات الحكومية في أوقات متباعدة وفجائية، وهي تحمل خراطيم المياه لترش بها الأسوار والأرصفة.

قال جندي ظهرت على وجهه أمارات القهر: سيدي أنهينا سقاية جدران المدرسة الصلاحية،هل تأمرنا بالانتقال إلى جدران مستشفى جزيرة الذمار الكبير

قال الضابط المسؤول وهو ينتفخ طربا بنفسه: علينا أن نسقي الأرصفة قبل ذلك، هيا اسحبوا الخراطيم وابدؤوا سقاية الأرصفة.

لم يكن أحد في الجزيرة يعرف ما تفعل هذه المجموعات العسكرية التي كان سلاحها خراطيم المياه سوى ثلاثة هم: الزعيم والعراف و(حقوق) مستشار الزعيم، فقد كانت هذه المجموعات تجول الشوارع ليل نهار من غير توقف، تدور حول المؤسسات الحكومية والخاصة لترشها وأسوارها

وجدرانها بالماء، وتأتيها أوامر رش الماء في أوقات متباعدة ومتقاربة غير معلومة.

وقد عملت مجموعات رش الماء بأمانة وإخلاص، وبلا كلل أو ملل، وتفانت في سقاية جدران المؤسسات والحمامات العامة والمدارس والمستشفيات

راقبت عروق هذه المجموعات، ودرست طبيعة عملها، وكم من مرة اقتربت من الجنود فيها، واستمعت إلى أحاديثهم وهم يتذمرون من هذه الوظيفة التي تتعبهم، والمهمات التي ترهقهم! فقد سمعت أحدهم يوما يقول: أنا لم أدخل فرق الدفاع لأصبح مسؤول خراطيم المياه في الجزيرة! وكم ضحك الجنود من أعماق صدورهم ثم انحنوا على الكلمات يغطونها ويغلفونها بأثواب الحذر.

وكثيرا ما فكرت عروق بأن تكتب لهم عن مهمتهم وأسبابها، ولكنها تراجعت عن رأيها بعد سماع زئير البواخر الجريحة، وكأنها تقول للصيادين اشتقت للبحر فتعالوا بنا إليه، انسحبت فرق الدفاع المائي من أمام مدرسة البنات، فركضت عروق إلى السور وكتبت"

يا فرق الدفاع المدني قولوا لزعيمكم إن الماء لا يُظهر من يلبس طاقية الإخفاء وإن البحث عن اللاشيء أهلك جنودك، صارحهم، وأخبرهم عما تبحث؟

شائعات

أفاقت الجزيرة في صباح ذلك اليوم على صرخات يابسة قاسية من أم الصواري جارة دار أبي المنذر وهي تقف عند رأس بقرتها(شقيرة) التي سال دمها، وقطّعت أوصالها، وتناثرت أشلاؤها على رصيف الشارع. ولم تمضِ أيام على تلك الحادثة حتى أفاقت الجزيرة على أصوات متداخلة متلاطمة من صراخ وبكاء وعويل ونحيب ونواح وصيحات عالية تأتي من أعلى التلة المطلة على الشارع الرئيس حيث كانت جثة مشوهة مقطعة متناثرة لشاب في العشرين أشلاؤه ملقاة في مكان جلوس كبار تلك المنطقة.

وكثرت الصيحات في الجزيرة، وكثر الصراخ فيها فقالوا إن وحش البحر قد جاع وطلب فرائسه، وهو لا يأكل إلا الإنسان، ولما لم يأت الصيادون إليه أتى هو إليهم.

وقيل إنه ذئب بشري جائع

وقيل إنها غول البحر

وقال العراف إنها العنقاء، ولا شيء غيرها من يفعل هذا بكم

وكتبت عروق على أسوار المقبرة: قتلهم زعيمكم.

ولم تتوقف عمليات القتل والتشويه والتمثيل بالجثث، وظلت الإشاعات تلاحقها وتفسرها وتبررها وتحاول التنبؤ بها، فقد استولت على اهتمام المتكلمين، وصارت محور أحاديث الندوات والاجتماعات وألفت فيها القصص والروايات.

حاولت عروق تقريب الصورة للناس، ومسح الغشاوة عن أعينهم، ولكن ألسنة الزعيم الكثيرة نجحت في رسم ما تريد وتخزينه في عقول الناس، فقرنت صورة عروق بالشيطان، حتى صار يقرن اسمها بالشتيمة فما إن يذكر اسمها حتى تلحقه الشتيمة كظله

وحينما كانت عروق تمشي في الأسواق بأناة وثقة، كم كان يزعجها أن ينعتها بعض الصيادين بالخائنة، وهي تعلم ما بهم من ألم، وتعرف أنهم في شر حال، وكم جلست بينهم واستمعت لأحاديثهم وهم يجترّون كلمات فرقة الأخبار التي شكلها الزعيم بعد حادثة القتل الأولى!

ولكل من لم يسمع عن فرقة الأخبار أو يعرف عن طبيعة عملها وكيفيته يقول الخبير بالشؤون السياسية في مستوطنة الأرض العليا:

"تقف حكومة الزعيم اليوم على مفترق سياسي واجتماعي يستوجب عليها أن تتخذ خطوات خطيرة باتجاه نشر مبدأ العدل والمساواة في مجتمع

الجزيرة، وكما يبدو فإن الزعيم اليوم يتعرض لهجمات قاسية من جماعة التمرد المسلحة التي تقودها عروق، ويبدو أنه غير قادر على السيطرة على نيران الثورة التي تشعلها عروق وعصابتها في أنحاء جزيرته، ولعل العلاج الأنجع الفعال الذي يوقف أثر هذه الكتابات الحائطية في أهل الجزيرة هو تشكيل فرقة أخبار همها نشر أخبار الجزيرة كما يراها الزعيم".

يوم الأرض العليا

ولمن يسأل عن الأرض العليا المحتلة نقول:كان صباح يوم السابع من شهر الصرخة صباحا جميلا مزهرا كغيره من الصباحات الجميلة الذي أطلت بها الشمس على جزيرة الذمار، وبعثت أشعتها لتمسح ظلال الليل عن البحر، وكان الموج يغسل برقة خد الشاطئ، والنسمات تغتسل بعيني الشمس على مرأى من الطيور التي راحت تتمايل مع موجة راقصة أتت لتوشوش الشاطئ، ولتحكي قصتها اليومية. وعلى طرف ناعم من هذا المشهد الصباحي كان صياد يغني وهو يلمُّ الشباك ببراعة ومهارة، و يلفها ويضمها، ويرتق ما فتقه قاع البحر فيها، ثم يمسك طاقيته حينا ويدفع صوته ليزج به القارب حينا، كانت أغنيته تطفو على وجه الماء فتسحب الخوف المتشبث بالصباح من الجوع، وتلقي به بهدوء مرة أخرى إلى البحر...

ويذكر الصيادون ذلك فقد جاءتهم قطعان الأشباح من البحر، وأكلت شباكهم وقواربهم، والتهمت شاطئ الأرض العليا ببيوته وناسه وشوارعه، لقد ابتلعت كل شيء حتى أسماء الطرق.

قالوا عن الأشباح حكايات كثيرة؛ عن قوتها وقسوتها وبطشها وعن عيونها الزرقاء التي جفت فيها الحياة، وعن أسنانها التي تطحن كل شيء،

وعن رؤوسها الضخمة الحديدية وشفاهها النارية ومخالبها التي تظل تبحث في الرمل.

وفي طرفة عين وجد أهل الأرض العليا أنفسهم نازحين بلا مأوى، وبلا شباك صيد، بل بلا بحر يقيهم نظرات الجوع التي تربعت على أوتاد الخيام، والتصقت بما انسدل من عيون متعجبة حزينة منكسرة.

أما من أين أتت الأشباح وكيف أتت ولم فلا أحد يعرف، فكانت عروق كلما سألت أمها عن الأشباح تتلعثم وترتبك وتسرح، ثم تقول لها:

كنا على مائدة الطعام والبحر من أمامنا ومن خلفنا حين سمعنا صوتا احتل الشاطئ في لحظة يابسة لا ملامح لها، فلجأنا إلى هذا الحي هربا من البحر؛ فمنه أتت الأشباح وعلى موجه ركبت.

وعندما قالت عروق إن الأشباح لا تعوم يا أمي!لم تتكلم أم المنذر ولم تعلق

أما أبوها فقال: أقطع يدي إن لم تكن تلك السفن الضخمة هي التي ألقت بها علينا

ولكن جارهم أبا الصواري كان يظل يقول عن ذلك اليوم: إنه غضب وحشي على شكل أشباح

أما الزعيم فصمت في قصره زمنا ثم خرج وطلب حاشيته فاجتمعت علىٰ عجل، وقال لها:كلكم تعرفون أن المقصود هو رأس الهرم، أنا المقصود ولا أحد غيري...

"لو تعلم يا جذور ما أسمع من تحت هذه الطاقية لذبت خجلا و حزنا".

كان يوم الأرض العليا يمر وفق طقوس محددة التزمها أهل الجزيرة، وساروا عليها حتىٰ صارت عندهم عادة يحاسب تاركها ومخالفها، وتتعهد هذا اليوم وطقوسه ولطمياته فرقة عسكرية خاصة بناها الزعيم ودعمها وفضلها تفضيلا، فقد عد الزعيم ذلك اليوم من كل عام يوما تعطل فيه مؤسسات المجتمع المحلي والحكومي، ويتوقف البحارة في ذكرىٰ ذلك اليوم عن سرد حكايات البحر، وعن الحديث عن ذكريات التجديف ورفع الأشرعة ورمي شباك الصيد أو رفعها من الماء، وتقف الناس في ذلك اليوم صامتة حيث هي عند نفخ بوق الحداد مدة نصف ساعة، وتدهن النساء رؤوسهن بزيت السمك، وأرجلهن بحبر الأخطبوط، وأجسادهن بالعلقم. أما الأطفال فيتوقفون عن اللعب، ويلزمون بيوتهم، وترفع في الأسواق الرايات السوداء والخضراء والصفراء، وتبدأ حلقات اللطم الجمعية المنظمة

المرخصة لطمياتها ولطمها عند الخامسة مساء، وتلزم النساء بالنواح والصياح والبكاء في كل بيت ساعة كاملة لا تزيد ولا تنقص.

وكانت اللطمية المرخصة المكان المفضل لعروق حيث تسمع في هذه في الساعة اللطمية الحرة التي صدرت موافقة الزعيم عليها ما تحب وما تريد من أنفاس شعبية.

تمشت عروق بين الجموع التي افترشت الأرض، وبحذر شديد وقفت على مقربة من اللطام الأعظم الذي فتح ورقته وخط عليها بعض الإشارات، ورسم سهاما كثيرة صاعدة نازلة، كانت عيناه القلقتان تنتظران عقارب الساعة كي تعلن بدأ اليوم؛ لأن اليوم قد وصل إلى الساعة الخامسة لتعطي نفخة بوق القصر الضخم أذن البدء باللطم الشجي:

درسي الأول يا أولادي
ضاعت أرضي أرض بلادي
ضاع السهل الجبل الوادي
ذاك النهر، الطير الشادي
راحت راحت يا أولادي
درسي الأول قال الجدُّ

حد ذماري ذاك الحد

تلك الجنة أرض بلادي

قولوا صيحوا يا أولادي

واحكوا واشكوا

وابكوا وابكوا يا أولادي

وحين نفخ في البوق بدأت يدا اللطام الأعظم وشفتاه وعيناه وكلماته بتهييج الصيادين الذين رسموا بأجسادهم خريطة منطقة الأرض العليا المحتلة، و تراجعت عروق بعيدا عن المنصة، وعن منطقة اللطم الحامية الوطيس، وراقبت من بعيد الأجساد والدموع، واستمعت بحزن إلى البكائيات الحارة المحرقة التي نظمت بعناية لتناسب طقوس ذلك اليوم الحزين، وحفظها الشباب والشيوخ بأوزانها وألحانها ووقفاتها وسكناتها وحركاتها.

يوم البوق

رأت عروق أطفال الجزيرة يتراكضون باتجاه منارة الشاطئ وفي أعينهم لهفة عجيبة، ولم تترك فرقة الأخبار لتساؤلات عروق أن تبدأ فقد كان صوت المذيع المتجول في فرقة الأخبار يعلن عن عزم الزعيم افتتاح مشروع البوق العملاق. وركضت عروق مع الراكضين لتحتل مكانا قريبا من المنصة، وبعد لحظات قليلة أُعلن عن وصول الزعيم، فارتفعت الأصوات وتعالت الشعارات والتحيات والتعييشات، وارتفعت الأيدي ملوحة للترحيب به، وارتفعت معها الأصوات المهلية والمادحة، ورافقته التعييشات والهتافات حتى جلس على المنصة التي كانت وسط نافورة تاجية يتدفق الماء فيها من كل اتجاه ليجري في سواقٍ تصل بساتين القصر، وأشار الزعيم للصيادين وللبحارة أن اسكتوا.

وما هي لحظات حتى دخلت عربة ضخمة تجرها عشرة خيول بلباس مزركش وموشاة بأحسن الوشي، وتوقفت أمام المنصة المائية، ونزل منها عشرة رجال مفتولي العضلات فحملوا البوق، ووضعوه عند قدمي الزعيم ثم انحنوا وتراجعوا. فقام الزعيم إلى البوق وحركه بلطف فخرجت منه صعقة آذت كل من حول الزعيم، ومشى الزعيم بزيه البحري الملكي حول

البوق عدة خطوات، ثم حيا الناس التي ردت بأحسن منها، وعاد إلى مكانه المائي، فاصطف سبعة أطفال بزي البحارة أمامه، وقدموا فقرة رياضية فيها حركات متقنة ماتعة صفقت لها عروق مع المصفقين، ثم تقدموا للسلام على الزعيم بعد أن خضعوا للتفتيش المائي الذي يكون برش الماء حول المتقدم وأمامه وخلفه.

وفجأة تصدر صوت فيه خشخشة وبحة نافرة المشهد حين استغل سكوت الصيادين العشوائي وتوقفهم عن الهتاف فصاح: الموت الموت لعروق.

فرددت الأفواه خلفه: الموت الموت

فأعاد الصوت صيحته الخشنة وردد مرة أخرى:الموت الموت لعروق

فرددت الجماهير من ورائه: الموت الموت.

فزاد حماسه فرفع صوته أكثر وردد مرة أخرى: الموت الموت لعروق.

فرددت الأفواه خلفه بأعلى وأقوى:الموت الموت.

- "ويلكم،ألا ترون بأعينكم السباعية ما أرى بعيني، ما لكم كيف تحكمون!؟

قالت ملك لأمها: ماما هل تطلبين الموت لعروق، وأنت تحبينها؟!

- اصمتي يا صغيرتي فأنا أحبها وأحبك وأحب أباك وأخويك!
- وهل سيأتي الموت ليأخذ عروق يا ماما ؟!
- قد يفعل إن هي استسلمت له!
- وهل ستستسلم عروق للموت يا ماما ؟
- عروق يا ملك، هاربة من يد الموت وزعيمنا سيقبض عليها لا محالة
- ألأنها دخلت الغرفة الحمراء!؟
- نعم، تلك جريمة لا تغتفر!

ونفخ في البوق نفخة أخرى فوضع الصيادون أصابعهم في آذانهم، فصاح الزعيم فيهم احفظوا هذا الصوت جيدا فهو سينجيكم من بطش الأعداء ومكرهم وغدرهم لأنه سينذركم ويحذركم منهم، ويعلمكم بهجومهم.

انسحبت عروق من بين الحشود بعينين دامعتين ويد حانية على قلبها الذي بدأ يقود هو الآخر اضطرابا كهربائي الروح والأثر، وانزوت بعيدا تراقب أمواج الحشود البشرية وهي تركض خلف عربة الزعيم وتهتف باسمه...

يوم الجراد

لم تمض سوى ستة أشهر على هجوم الصراصير الشرس على الجزيرة وتراجعه حتى أطل يوم الأربعاء الخامس والعشرون من شهر الصرخة من سنة الذباب وهو يحمل في سمائه غيوما كثيفة حجبت الشمس، ثم نزلت إلى الأرض فرحة هائئة تسابق نفسها في التهام كل شيء فيه لون أخضر على الجزيرة حتى لو كان لوحة فنية أو قصيدة شعرية.

لم يحذر البوق الناس في ذلك اليوم مثلما لم يحذرهم يوم الصراصير، فقد وجدت عروق نفسها في بركة شرهة من الجراد وقد أكل أكثر ما كان يغطيها **وكما جاءت الصراصير وذهبت جاء الجراد وذهب من غير أن يعرف أحد كيف جاء وكيف ذهب!**

يوم الأم

ما تزال عروق تردد حوارها مع أمها وتقلبه وتفتشه وتبحث فيه عن قلب أمها لتطمئنه

أم المنذر:لا يا ماما، لا !

عروق:ما حاجة الزعيم لطاقية إخفاء والناس لا ترىٰ منه إلا ما يريد هو؟

– يا عروق،أنت حملت السلم بالعرض!

– لا يا ماما، السلم مزروع بين عيني منذ وجدت الأيدي القوية وهي تسرق وتنهب وتسيطر ولا أحد ينتقدها وهي تلبس طاقية مثلي، طاقية السيادة

– لا يمكن أن يلين عقلك من صغرك وأنت عنيدة !

– يا ماما، ما الفرق بين من يلبس الطاقية ليسرق ومن يلبس غيرها ويفتن ويدمر ويستغل ويظلم يا ماما طاقيات الإخفاء أنواع وأشكال!

– دعينا من فلسفتك، وقولي لي كيف حالك؟ وما هي قصة هذه الطاقية التي تجعلك تختفين؟

– أنا كما ترين كما أنا لم أتغير، وأما الطاقية فهي مصنوعة من ريش الجن، كل من يلبسها لا تراه أعين البشر، كان الزعيم يسير فيها في الأسواق ليتعسس أخبار الناس ويدرس مشاعرهم!

بهتت أم عروق وسرحت في كلام ابنتها، فرأت عروق أنها أثارت دهشة أمها فأكملت كلامها:

نعم، يا ماما أنا تعبت، لكنني أقوىٰ من عروق التي تعرفينها في أول الهروب، مع أن الزعيم وزبانيته غدوا أشرس وأخطر !

– كيف ذلك؟!

– الآن هو يستعمل الكلاب ومعه ملابسي التي صادرها منكم...

مشت عروق وهي تلبس طاقية الإخفاء نحو النافذة فشاهدت جارتهم أم الصواري وجارتهم الطويلة أم سحبان فاستغربت من عدم التفاتها نحوها.

– ماما، ما أخبار جارتنا أم سحبان؟

– منذ هربتِ وهي دايره وجهها عنا شمال! وما حدا عارف ما بها!

فانسلت عروق بسرعة إلىٰ خارج البيت، وتسللت إلي بيت أم سحبان، ثم جلست إلىٰ جانبها أمام المرآة.

لم تشعر أم المنذر بخروج عروق من الدار، ولكنها ارتاحت كثيرا لمغادرتها؛ فقد فاجأتها مجموعة التفتيش التي دخلت البيت ونبشته وأطلقت الكلاب فيه تشتم زواياه ونوافذه.

قالت أم المنذر لنفسها:""لو تأخرت عروق قليلا لأمسكتها الكلاب، ولعلقها الزعيم على منصة العقاب في وسط ساحة الجزيرة ".

خرجت جماعة البحث والتفتيش فوضعت أم المنذر يدها على قلبها خوفا من أن تصطدم تلك المجموعة بعروق، وحين أطلت عروق احتضنتها بقوة وهي تبكي، فعرفت عروق أن جماعة البحث والتفتيش قد نفلت الدار، وجلبت معها الكلاب فقالت اطمئني يا أمي فأنا صرت أدهن جسدي بالعلقم لأمنع الكلاب من التعرف إلي، ومنعها من تتبع خطواتي.

- أين ذهبت فجأة ؟

- ذهبت الى جارتنا أم حسبان لأعرف لم تكرهني،وما الذي فعلته لها.

- وهل عرفت؟

- نعم عرفت، لقد دخلت بيتها واستلقيت إلى جانبها على سريرها وحين سمعت خطوات فرقة البحث وهي تقترب من دارنا ارتبكت وصارت تدعو لي.

- لن أحكم على الناس من سلوكهم الظاهر فالجزيرة تمتلئ بالمتناقضات؛ فهؤلاء الذين ترينهم حول الزعيم يلبسون أكثر من طاقية.

وفجأة دخلت مجموعة من الملثمين وصارت ترش الماء في كل اتجاه فاسرعت عروق الى النافذة ونزلت منها إلى الحوش وأطلقت لقدميها العنان.

يوم التعارف

وللذين يسألون كيف عرفت عروق جذور قالوا إنه وقفت في ذلك اليوم مجموعة من الطالبات أمام مدرسة ذمار الثانوية وهن يرفعن لافتة كتبن عليها لا للغرفة الحمراء، لا وألف لا، وكانت عروق تهتف بحرارة وقوة وغضب، ولم تمض سوى لحظات حتى كانت مجموعات الزعيم تحاصر المكان بعد أن كانت الطالبات قد انسحبن إلى داخل ساحة المدرسة بسرعة واختلطن ببقية الطالبات.

دخلت المجموعات العسكرية لاعتقال الطالبات المخربات لكنها لم تستطع معرفتهن، وبقيت هذه الفرق تحاصر المدرسة وتفتش الطالبات، وتبحث بين ثيابهن عن لافتة منسية أو ورقة مطوية بعد أن وجدت اللافتات في براميل النفايات.

حبست المجموعات العسكرية الطالبات في المدرسة، وحققت معهن تحقيقات قاسية في محاولة لمعرفة أول الخيط ولكن ذلك لم يفلح معهن.

وحين غادرت الفتيات قالت إحداهن لعروق: أسعد الله ذلك الشاب الطويل النحيل الأسمر الذي حذرنا من هجمة العسكر، لولاه لكنا الآن في خبر كان !

قالت أخرىٰ:لولا ذو العينين لكنا الآن علىٰ المنصة نجلد بلا رحمة !

قالت أخرىٰ:أنا توبة أعيدها، لو عرف بابا لأصابته جلطة ومات

وقالت أخرىٰ: وأنا كمان، والله بابا سيغضب.

وقالت ثالثة: أنا سأظل أتكلم، ولكنني لن أشارك في أي عملية رفع لافتات. هذا الزعيم لا يرحم فقد جلد أمس عجوزا لأنها دعت عليه، وقبل أمس جلد فتاة صغيرة شتمت كلبه الخاص.

قالت أخرىٰ: والمشكلة أن الناس تركض خلف موكبه كلما دخل السوق.

قالت أخرىٰ: هم يشتمونه في الليل وفي الخفاء وحين تطلع الشمس يخرجون للهتاف باسمه.

فقالت عروق: أما أنا فلن أتراجع، وسأبقىٰ أنادي وأصيح وأهتف بأن قانون الغرفة الحمراء باطل وأنه نوع من الاستعباد.

فعلىٰ الطرف المقابل من الشارع كان جذور يحاول إقناع بعض الطلاب برفع لافتة تندد بالغرفة الحمراء حين رأىٰ الطالبات وهن يرفعن اللافتة، ولمح من بعيد عربات عسكر الزعيم وهي تمخر الطريق الرئيس بثبات وقوة

وقسوة فصار يصفر لهن وينادي ويحذر حتىٰ انتبهن عليه فعرفن أنه يحذرهن، وأنه يطلب منهن المغادرة فأسرعن إلىٰ داخل أسوار المدرسة.

ولم يكن صعبا علىٰ جذور أن يميز عروق فقد كانت الفتاة طويلة سمراء تربط شعرها الطويل بشبرة حمراء فقد قال لزميل له سأله كيف ستميزها فقال:هي تمشي بأناة كما يمشي الوجي الوحل، أما هكذا علمنا أستاذنا، ضحك الطلاب وهي ستميزك عنا بسهولة فأنت الوحيد الذي له عينان ولسان وشفتان وأنف ومنخران وأذنان.

قال جذور بثقة وفخر: لو قلتم (لا) للزعيم لصرتم مثلي بعينين وأذنين وبقلب واحد، فاهنؤوا بسباعياتكم.

لم يكن من عادة جذور التسكع عند مدارس البنات فكل من يعرفه يشهد له برجاحة العقل والخلق،ولكنه مضطر أن يمشي في ذلك الطريق المدرسي ليلقىٰ عروق.

قالت إحدىٰ الطالبات لعروق: هذا الشاب لبس هذا الطريق لا يتركه ولا يفارقه !

قالت أخرىٰ: هو يبحث عن صيد والطرائد كثيرة كما ترين!

نظرت عروق إلى ذلك الشاب الأسمر فعرفته، وقالت برقة ودلال: إنه الشاب ذو العينين نفسه الذي حذرنا من مجموعة الزعيم العسكرية، لا بد أنه جاء ليلقاني؛ أحس بنبضه الدافئ الصادق من هنا ".

تركت عروق الفتيات يتجاذبن أطراف الأحاديث بينهن واتجهت إلى جذور.

عروق بابتسامة: صباح الخير.

جذور: صباح الخير يا عروق، أعرف لم جئت !

- وأنا أعرف لما جئت أيضا.

ضحكت وضحك وافترقا

وحين هربت عروق من فرق العسكر لجأت إلى بيت جذور وهي تلبس طاقية الإخفاء وعلى السطح نامت، وفي الصباح كانت الجزيرة في حالة من اللاوعي مرتبكة مرتعدة تائهة

نظرت عروق من السطح إلى الشارع الرئيس فرأت الناس سكارى وما هم بسكارى كأنهم حمر مستنفرة أو إبل هائمة.

طرقت الباب فخرج جذور مكبلا بقيود الليل فرك عينيه وابتسم مليئا بالدهشة وقال: عروق أهلا أهلا تفضلي أهلا وسهلا !

وبعينين دامعتين نظرت عروق إلى جذور وقالت:

لا تسلني فأنا بصراحة لم أعد أعرف شيئا مما يدور حولي،لم أعد أفهم شيئا مما أسمعه أو أسمع عنه أو أراه، فالأمور والناس والأخبار والأشياء والسلوك والقيم كلها متضاربة متناقضة متجاذبة متنافرة متعاكسة متقابلة متضادة لا شيء يشبه نفسه، أو وصفه المعجمي بعد أن خرج الناس والقيادات والأشياء كلها عن خط سير الحروف، وأنا حتى أنا لم أعد أنا، فما أواجهه في المرآة ليست عروق التي تعيشني وأعيشها، يا جذورلم تعد الأشياء قابلة للفهم ! لقد دخلت الغرفة الحمراء وهربت من بيتي فهل أنا مرحب بي هنا أم لا ؟!

قال جذور: هذا سريرك وهذه غرفتك لن يسأل عنك أحد هنا، فأبي واحد من هؤلاء العسكريين الذين يجوبون الشوارع بحثا عنك !

يوم الفقد

وشهدت الجزيرة أياما عصيبة أخرى غير يوم الأرض العليا ويوم الورق، ويوم الجراد، ويوم الذباب ويوم النسيان الأكبر، فقد أشرقت شمس صباح يوم الخامس والعشرين من النفخة على صياح الصيادين وهم يبحثون عن متاعهم وقواربهم وشباكهم التي لم يجدوها تنتظرهم كعادتها في كل صباح، وفي اليوم الثاني أفاقت الجزيرة على صياح نساء وشتائم طولية وعرضية وبحث شرس مضطرب في الممرات والشوارع والأزقة عن ملابس أهل الجزيرة المنشورة على حبال الغسيل التي نشروها لتجف وأفاقوا ولم يجدوها، واستمر مسلسل الفقد فاقترح الزعيم على اللجنة الاستشارية تشكيل مجموعة إخبارية تعنى بنشر أخبار المفقودات والإعلان عن اللقائط، ولكن أعضاء اللجنة قالوا للزعيم إن الفرقة الإخبارية جاهزة ومدربة، ولا بأس إن خصصت يوم الأربعاء من كل أسبوع للإعلان عن المفقودات. واتخذ القرار.

وكان الناس يحتشدون على جانبي شارع الجزيرة الرئيس يملؤون الأرصفة ليسمعوا خبر ضياع أغراضهم وكان صوت المذيع المنبعث من عربة

الأخبار يهدأ أحيانا ويرتفع أحيانا مما أزعج بعض الفاقدين فقال أحدهم: لا يجوز هذا، كان عليه أن يرفع صوته أكثر فلم يعرف أحد ما فقدت !

وقال آخر: يبدو أنه يرفع لمن يدفع!

ومن بين نشرات الأخبار الشارعية سمعت عروق نبأ فقدان قطتها (أوأو) وكلبة صديقتها (جيجي)، ودجاجة أم الصواري، وديك جارها أبي سمحان...

قال المذيع: "محمد محمود عليوه من الشطر الشمالي من سكان ضاحية الشوط الأول - حي البلاط فقد ببغاء أشقر على أشقر ناطق بلغة الجزيرة في يوم السبت، وذيله أحمر يظل يكرر كلمة يموت يموت ".

قالت فتاة بفرح وارتياح: نعم نعم هذه ببغائي !

قالت عروق تخاطب نفسها:"ألن يعلن زعيمكم عن فقدان طاقيته أم أنه لا يجرؤ على فعل ذلك " ومشت إلى عربة الأخبار، ورمت ورقة في حضن المذيع قلَّبها مرة ومرتين ثم قال كيف سقطت هذه الورقة مني ؟! ثم نادى بصوت عال وقوي سمعته الجزيرة كلها حتى الزعيم نفسه سمعه وانتفض في مكانه، واحمرت عيناه من الغضب، وصار يضرب يد الكرسي بقسوة.

:"هبران الهبر مرتضى فقد طاقية حمراء طويلة من غرفته في بيته على تلة الهوى في الجزيرة على من وجدها إحضارها لمكتب دائرة الأخبار "

ومشت عروق بسرعة بعيدا عن عربة الأخبار خوفا من أن تفاجئها هجمات فرقة الماء، التي أسرعت إلى عربة الإذاعة وأحاطتها من كل اتجاه وشرعت برشها بالماء وكم فرحت الجماهير لمشهد رش المذيع بالماء من كل اتجاه.

استمعت عروق بحزن إلى مجموعة من النساء وهن يشكين بألم أثر ما فقدن فيهن، فواحدة منهن قالت وهي تبكي بحرقة: تصوري كيف كان شعوري وأنا أرى منشر الغسيل وليس عليه سوى خرقة بالية نستخدمها لمسح الفرن، ملابسنا كلها اختفت !

وقالت أخرى:أما نحن ففقدنا نقودنا كلها ولم يبق معنا ما يكفي لنشتري لأطفالنا طعامهم.

وقالت أخرى: أنا فقدت خاتم زواجي !وقالت أخرى بحسرة أما أنا: فأسكن في منزل من ثلاث غرف؛ أنا وأبنائي وعائلاتهم، ولا يوجد لدينا غريب. صرنا نفقد كل يوم شيئا؛ فقدنا ملابس زوجي ومخدته وفقدنا خاتم زواجي، وفقد أولادي كثيرا من ملابسهم الداخلية، وفقدت نساؤهم كثيرا

من ثيابهن ومصاغهن وخواتم زواجهن، وقد سألنا العراف فقال: (منكم وفيكم) وألححنا عليه أن يوضح أكثر فأبى، لكن، لا أحد في المنزل يمكن أن يفعل ذلك، فكلهم متضررون وكلهم فوق الشبهات" فقالت عروق:"أقطع إيدي إذا ما كان الهبر هو أساس البلاء، "وركضت بسرعة تاركة النساء وهن في حيص بيص يفتشن عن مصدر الصوت.

معلقة المتمرد

اليــوم قبــل العــاشره والأرض حــولي نــافره

والنــاس تمــلأ ظلهــا وعيونهــا بي نــاظره

شــيخ وطفــل عــابس وحقيبــة لمســافره

وفــم يهــاتف غاضــبا ويهــز تلــك الخــاصره

ودم يفــيض بروحهــا تلــك الفتــاة الحــاسره

وأنــا أحلــق باســما وكــأن روحــي طــائره

وقفــت وقالــت هــل تــرى يــا أنــت إني حــائره

وتمترســت بوجومهــا أفكارهــا بي عــابره

وضعت على الخد الأسى بـدموعها هـي سـاحره

فوقفــت أرقــب دمعهــا بــرق يغــازل حــادره

والنــاس تنظــر صــوتها وثيابهــا المتطــايره

متشــغنف بشــفاهها بــدموعها المتنــاثره

قالــت أتعــرف بيتنــا في البــدر أو في الســامره ؟!

فضحكت حتى شدني جـاري وقـال: الكـافره ؟!

ستقول أرض جدودها كانـت حـدود الآخـره...

يوم الصراصير الثاني

وأما يوم الصراصير الثاني فهو اليوم السابع من شهر النفخة من عام الجراد وهو يوم آخر لن ينساه الزعيم، بل لن تنساه جزيرة الذمار، ففي هذا اليوم هاجمت أسراب الصراصير كل مكان في الجزيرة، وأحاطت بقصر الزعيم من كل اتجاه، وهاجمت الناس والحيوانات بأساليب غريبة عجيبة بالآلاف بل بالملايين، واجتاحت البساتين والمنازل والحدائق وكل مكان فيه بذرة حياة، و لم تستطع عروق في ذلك اليوم إكمال منشورها على جدار المركز الصحي فقد كتبت الكلمة الأولى من عبارتها: الغضب....ثم لجأت إلى ركن قصي في ظاهر المدينة بعد أن هاجمتها الصراصير، وتعلقت بشعرها،وتسلقت وجهها، وتشبثت برموشها وبحاجبيها، وغطت ملابسها.

كانت تسمع من مكانها القصي صرخات الناس، وصوت بوق الزعيم ومذيع الأخبار وهو يطلب العون لحماية قصر الزعيم.

قالت عروق لجذور وهي تحتضنه بحب وكأنها تلجأ إليه: خفت كثيرا، لقد أرعبتني هذه الصراصير اللعينة، لم تترك مكانا من جسدي إلا وتسلقت عليه وتمسكت به، لا أستطيع أن أغمض عيني يا جذور!

تنفس جذور الصعداء وهو يلتقط كلمات عروق المثخنة بالجراح المعبأة بالخوف والارتباك والقلق والألم، ثم فقد كان هو الآخر مثخنا بالجراح تعبا مرهقا تتناوشه الآلام، وقال بصوت متعب متهالك: من أين جاءت هذه المخلوقات اللعينة ؟!

ثم أكمل: لعل حسنتها الوحيدة أنها دخلت قصر الزعيم، ولم تترك في قصره ما يمكن أن يقول أنا الزعيم!

قالت عروق بلهفة: والزعيم ؟

- لا أدري، لكنه يلجأ دائما إلى غرفته المنيعة حين يسمع البوق!

فقالت عروق بحرقة وحسرة: سأدمر هذا البوق اللعين! ثم قالت وحب وخوف وقلق متشبثة بآمال كثيرة من الحياة: والناس يا جذور،أهل ذمار ؟

قال جذور بحزن: أهل ذمار يا عروق يتجرعون الآن طعم الألم الحقيقي!

رأيت كثيرا من الجثث ملقاة في الشارع الرئيس، ورأيت حيوانات الجزيرة وهي هائمة في الشوارع والجبال والسهول صائحة هائجة متألمة تلاحقها الصراصير أينما ولت وجهها.

وفجأت سمع الهاربان صوتا عميقا اهتزت له الأرض فضم السكون الجزيرة بين جناحيه، وتوقف كل شيء في مكانه، وثبت بلا حراك، فنزل الهاربان إلى الجزيرة وتمشيا في أروقتها وممراتها وشارعها، ولكنهما لم يريا أحدا، ولم يريا أثرا لأي صرصار. فمشيا إلى المنصة عند ناصية الشارع، كان صوت الزعيم يختال من بعيد وهو يقول:

نعم، أيها الصيادون لم أستطع السكوت أو الجلوس في قصري، وترك أبنائي وبناتي يواجهون الصراصير وحدهم، نعم، أقولها لكم إنني لم ولن أترككم وسأكون دائما في مقدمة المدافعين عن ذمار، سأقاتل وأقاتل وسأضحي بكل ما أملك لتحيا ذمار...

أضحي بروحي لتحيا ذمار.

فرددت الجماهير من خلفه: وتحيا وتحيا ذمار.

ثم تابع الزعيم خطبته ملوحا بعصاه: أما الخونة المخربون الذين يريدون تدمير الجزيرة فمصيرهم الموت مثل هذه الصراصير، نقول لعروق وجذور وعصابتهما ستموتون ستموتون

فتردد الجماهير: الموت للعملاء الموت للعملاء.

وانفضَّت الناس وهي مثخنة بالجراح،ويعتصرها الألم، ورجعت إلى بيوتها لتلملم ما تبقى لها من هجوم الصراصير، وتداوي ما تركته فيها من جراح.

مشى جذور حزينا بعينين دامعتين وهو يمسك بيد عروق محاولا ألا يدوس بقدميه جثث الناس وأشلاءهم، فقد كانت جثث أهل ذمار منتشرة في كل مكان، ودماؤهم تلون الممرات والأرصفة...

قال جذور وعيناه مغرورقتان بالدموع وتنظران إلى الأرض العليا: وحدهم أبناء الصيادين من يذوقون طعم الموت يا عروق وحدهم، انظري ها هم الموتى؛ صياد ومذيع وحارس وجندي وجلاد،إنها أشلاء أبناء ذمار أبناء الصيادين ملقاة على الأرصفة وفي كل مكان، ثم اتجه ببصره نحو مجموعة من المزارعين وهم يرفعون أشلاء حيواناتهم عن الطريق وقال: حتى الحيوانات لم تسلم من بطش الصراصير!

قالت عروق بارتباك وألم: تباً لهذه المخلوقات المتعجرفة المقرفة، آه، لم أستطع السيطرة على نبضاتي وأنفاسي، كم كانت مرعبة تلك االمخلوقات وقاسية! بلونها المتحد مع الموت، وبقفزاتها القاتلة وطيرانها المقيت الجاف! كانت تطوف حولي، كانت تراني بكل ضعفي وقوتي، تصور أنها لم تكن

تهاجمني إلا حين أكون قوية كرمح، وكانت حينها تباغتني من كل اتجاه، لتحتل عيني وأذني ومنخري... لقد قفز أحدها ولطمني بمنخري، ثم عاد ولطمني بمنخري الآخر، كانت تتحداني، رأيتها تنظر إلي بعينين ناريتين، ولم تكن تبالي بالموت، ولم أكن أعرف متى ستضربني، ولا من أين ستنفِّذ هجماتها. يا جذور، لم تكن هذه صراصير، وإنما كانت فصائل عسكرية منظمة، أو عربات محصنة مملوءة بالموت وبرغبة القتل والفتك!

قال جذور بصوت مليء بالحب: ويلي عليك يا عروق، كم عانيت! نسيت أن أقول لك إن أمك وأباك بخير رأيتهما وأنا أمشي في طريقي إلى المنصة!

- أسعدتني بهذا الخبر، وخففت عني بعض ألمي!

وبينما هما في مشيهما الحذر في طريقها لملجئهما سمعا عنصرين من عناصر الدفاع عن الجزيرة يتهامسان:

- إنه كاذب، لم يحرك ساكنا، اختبأ مع عائلته في غرفته المنيعة!

- فمن طرد هذه الصراصير إذن؟

- لا أحد يدري، ولكن الذي أنا واثق منه أننا في فرق الدفاع لم نقتل صرصارا واحدا، وأن الصراصير كانت تسرح وتمرح في معسكراتنا، وفوق

عرباتنا ونحن مختبئون تحت الأرض نراقبها من بعيد، وهي تأكل الناس والزرع والحيوانات...

قالت عروق بغضب وحزن:خذني إلى الملجأ يا جذور، خذني أرجوك!

وفي الطريق كان صوت عجوز يمخر السكون ويقطع عيني الحزن وهو يغني:

"صرصر صرصر

أسود واحمر

اضحك كركر

أوعا تفكر

انت الضيف وربيعنا أخضر

أخضر أخضر

أخضر أخضر

فعلن فعلن فعلن فعلن

جيب أولادك

هات اصحابك

وجيب أعمامك

وهات إخوانك

أحنا اليوم وربيعنا منوَّر

صرصر صرصر

وجهك أصفر

لونك أصفر

أصفر أصفر

أصفر أصفر

قم وتمختر

يلا يا أزعر

(لا) ما بدك

وخِّد صفك

كلهم صفك

كلهم جنبك

صرصر صرصر

أسود واحمر "

يوم اللعب

منذ أعلن الزعيم أن يوم الأحد من كل أسبوع سيكون يوما للعب، حار شباب الجزيرة وحار الصيادون في أمرهم، وارتبكت النساء، وفرح الأطفال ورقصوا، ولكن عربة الإذاعة التي مرت من أمام عروق بسرعة عجيبة، لم توضح الخبر، ولم تعط تفصيلاته.

قالت عروق لجذور الذي تكوم في ملابس شيخ كبير، وتخفَى بلحية مستعارة وبشوارب كالعقرب: إلى أين يقودهم الهبر يا جذور، يوم اللعب؟ يوم آخر ؟!

قال جذور محاولا طمأنة عروق: النشاط نشاط يا عروق، وفي كل معاجم الدنيا النشاط هو النشاط؟

فقالت عروق وهي تعصر شفتها بأناملها: إلا عند الهبر !

ولم تمض سوى لحظات حتى كانت ساحة الجزيرة قد امتلأت بالناس على بكرة أبيهم وقد أحاطوا بالمنصة حتى كادوا يحتضنونها.

وبعيدا عن الحشود وقفت عروق في زاوية مطلة وهي تلبس طاقية الإخفاء، وإلى جانبها كان جذور يمسك بعصا يتوكأ عليها، وانتظرا في مكانهما مع المنتظرين...

جاء الزعيم فتعالت الهتافات التي رافقته حتى جلس وسط النافورة المائية، ثم وقف ولوح للعيون التي تراقبه بيديه، فصفقت الحشود، ورحبت، وهتفت، وقام من بينها هاتف يقول: المجد للزعيم، المجد للحامي الأمين.

فصاحت الجماهير بصوت واحد: المجد المجد

ثم جلس الزعيم وهو يرتِّب هيبته في عيون الحشود، ويبث في عيونهم صورته المهيبة، ثم طرق بإصبعه على المجهار طرقات خفيفة، ثم قال:

يا أهل ذمار، يا شعلة الثورة والنار، يا ورثة الفاتحين، يا جند الحق والحب والجمال، وسنبلة القمح في ثرى المجد والبطولة، أحبتي وأهلي وأولادي وبناتي، لقد قررنا أن يكون يوم الأحد من كل أسبوع يوما للنشاط، نعم، يا أهلي وعزوتي وعشيرتي، سنلعب، نعم سنلعب، سنقول للعدو المتربص بنا على الثغور إننا أحياء، وسنبقى أحياء، سنلعب أيها الأحبة، وسنرقص وسنغني مواويلنا الشجية، أيها الأهل فلنلعب ولنضحك ولنقف في وجه العدو الأسود أحياء...

وصفقت الحشود بحرارة...

اجتمعت اللجان في كل حي لتختار الألعاب التي يمكن أن تنافس بها لنيل جائزة الزعيم، وبعد مشاورات ومداولات ونقاشات وجدال وأخذٍ

ورد وقبولٍ واعتراضٍ وممانعة ومماطلةٍ اعتمدت اللجان أربع ألعاب تستطيع الإدارة المحلية للجزيرة أن تتكفل بما تحتاجها من أدوات، وأن تخصص لها ما يناسبها من ساحات.

عروق: هو يوم اللعب يا جذور !

ضحك جذور وقال: نعم هو يوم اللعب، اسمعي يا جذور ما هي الألعاب التي اختاروها ؟

– لم أنتبه على المنادي وهو يدور في الشوارع والزقاق بطبلته وصوته الأجش الجهوري!

وما هي إلا لحظات حتى نادى المنادي من مكان بعيد من عربة الأخبار بعد أن نفخ في البوق ثلاثا:

يا أبناء جزيرة ذمار، يا أبناء جبال الصبر والحديد والنار، نعلن لكم عن الألعاب التي ستملأ علينا يوم الأحد من كل أسبوع:

أولا: لعبة حاكم جلاد

ثانيا: لعبة شد حبلك واسحبه

ثالثا: لعبة" نُط الحبل نط، شبره أَمَرَه شمس نجوم ورده حليب إيما "

رابعا:لعبة الحجلة.

وفي ذلك فليتنافس المتنافسون

لم تستطع عروق احتمال أصوات المجموعات الرياضية التي تكدست فوق عبارات صاخبة حماسية ملأت الجزيرة:

- من المفتش ؟

- حضرتي

- أخرج لصك!

مرعب، سعيد، خليل، عريف، عريفة، فتنة...

حكمت المحكمة عليك بسبعين جلدة...

حكمت المحكمة عليك...

قالت عروق وهي تضع رأسها بين كفيها: جذور، سأكتب على أبواب الساحات وفوق المنصة" ما أبقى لكم الهبر لتعيشوا، أفيقوا من سباتكم !"

فقال جذور وهو يشيح بوجهه بعيدا عن عيني عروق: أشعر يا عروق أن كتاباتنا بلا أثر!

لكن عروق لم تجبه، ولم ترد، ولم تتكلم، ولم تلتفت إليه، وظل بصرها معلقا بذلك الخيط الدخاني الذي ظهر في طرف الحي الجنوبي حيث عائلتها!

فلبست طاقية الإخفاء، ومشت بخطوات واسعة إلى بيتها، وجذور يحاول اللحاق بها؛ فقد كانت ملابسه التي يختفي خلفها تعيقه وتؤخره، وتجعل مشيه وئيدا. وقفت عروق أمام بيتها حزينة مكسورة الجناح غاضبة، وصارت تبكي بحرقة، وجذور يحاول أن يخفي عينيه النضاختين بالدموع.

قالت عروق: أترى يا جذور، لقد أكلت النار بيتنا كله!

ولم يطل وقوفهما على أطلال المنزل حتى سمعت صوت أمها وهي تقول لأبيها: لا تأبه فالذي بناه سيبني غيره، يكفينا أننا كلنا بخير.

نزعت عروق الطاقية، وركضت إلى أمها واحتضنتها، ثم التفت إلى أبيها وقالت له وهي تخفي دمعة قلبها: ما أبقى لنا لنعيش؟ سأجعل أيامه رمادا يا أبي !أعرف يا أبي أن البحر تغلقه الأشباح، والبر مثقل بمن عليه، والشاطئ مجروح بالفقد، ومكبل بالحرس؟!

ثم احتضنت أمها وقالت: يا أمي النار بالنار، والدم بالدم والبادئ أظلم !

فقالت أمها وهي تتحسس شعرها وتضمها إلى صدرها بقوة: لا يا ابنتي، ليست الجزيرة للزعيم، ما له فيها غير منصة الجلد والقتل!

همست عروق وهي تمسح دمعتها:سأحاول فهم ما يجري حولي، ولكن الأمور والأشياء والأحداث تستعصي علي، فكلها تجري بلا منطق، وتسير من غير قاعدة، وتتغير وفق اللامعقول...وكثيرا ما أمسك أنفي وأفرك أذني وأقرص جلدي لأتأكد أن ما أراه وما أسمعه حقيقة لا خيال.

يوم الموت

المجموعات التي خرجت تندد بمقتل الطفلة سلمى دهسا تحت عجلات عربة الأخبار قادت تظاهرة كبيرة نحو قصر الزعيم لم تكن مسلحة، ولكن خمسة من رجال الأمن كانوا بين القتلى، ونفى الصيادون أن يكونوا قد قتلوا أو قاتلوا، ويؤكدون أنهم لم يرفعوا سوى أعلام الجزيرة، ولم يهتفوا إلا للجزيرة، لكن قوات الأمن تتهمهم بقتل قادة من المتظاهرين.. وبقتل جنود من جهاز الأمن والدفاع الوطني ولكن المتظاهرين كلهم يؤكدون أن أفرادا من القصر هم من قتلوا الطرفين.

شكل الزعيم لجان التحقيق في تلك الحادثة التي راح ضحيتها سبعون صيادا، وخمسة من رجال الأمن ومئات المعتقلين.

كتبت عروق على سور معسكر الدفاع: (قتلهم الزعيم وجنوده)، وكتبت على سور دار الحكومة (قتلهم الزعيم وجنوده)، وكتبت على لوحة المنصة (قتلهم الزعيم وجنوده)، ثم اتخذت من دون الناس ركنا قصيا لتراقبهم منه، وتنتظر تطور الأحداث.

قال أحد الجرحى: قال الزعيم في خطبته إن اللجان سوف تجد الحقيقة!

قال جريح آخر:هاهاها اللجان؟! ستعجز هذه اللجان عن معرفة أسماء أعضائها، ثم ضحك ضحكة ماكرة ساخرة، وأكمل بتهكم وغضب: لأنها سوف تجد أن الذيل الذي تجذبه. هو ذيل جهاز غير معروف ضخم من خارج الجزيرة.

قال آخر: الجهاز المشترك هو نفسه الجهاز الذي قتل المتظاهرين هنا وهناك...

قال صياد بغضب: ومن يا ترىٰ يملك هذا الجهاز الخطير ؟

قالت صوت هامس:الزعيم، ولا أحد غيره !

قال آخر: ونحن الآن هنا نسرد بعض ما حدث، وغدا سيسردون ما سيحدث، في الأيام القادمة ستجلو الشمس الحقيقة، وسيظهر الحق، وسينكشف المستور، ويعرف الجميع ما يجري الإعداد له الآن في قصر الزعيم، ويأتيك بالأخبار من لم تزود...

قال رجل: هل انتبه أحد منكم علىٰ الفتيات اللواتي وضعن المناديل الخضراء علىٰ الرؤوس. أهو علامة تعارف بين الفتيات، من هؤلاء، ومن أين جئن، وكيف جئن؟

قالت عروق بصوت جهوري: ذوات المناديل الخضر هن بناتكم وأخواتكم، وهن من يشعلن الغضب على الظلم. ثم انسحبت بسرعة من المكان تاركة العيون تبحث في الجهات عن مصدر الصوت.

يوم المنصة

في السادس والعشرين من شهر الصرخة من عام الزلزلة الثانية. لم يجد جذور عروق بانتظاره، وهي لم تترك خلفها إلا ورقة صغيرة كتبت عليها" قف على ناصية الحلم وقاتل " ولم تقل إنها ستغادر، أو إلى أين ستذهب، ولم يعرف جذور ما حدث في تلك الليلة وأزعجها، أو ما كانت تفكر به وتخطط له، فهو تعود ألا يناقشها في قراراتها، وألا يجادلها في أمور حياتها، فلم يدخل قط معها في نقاش أدَّى إلى خصومة، حتى إنهما لم يتكلما في تلك الليلة إلا عن وجبة الطعام.

حملت عروق أمتعتها كلها ووضعتها في حقيبتها الصغيرة الزرقاء، وانطلقت مع الفجر إلى حيث المجهول...

وكعادتها كانت ساحات الجزيرة وشوارعها تغص باللاعبين واللاعبات والأصوات والصرخات، ولكن خطى ثابتة تقدمت نحو المنصة غيَّرت مجرى ذلك اليوم؛ فقد مشت عروق وهي تلبس طاقية الإخفاء نحو المنصة بشعرها المنسدل على كتفيها وبعينيها الزرقاوين المبرقتين النابضتين بالتحدي، وبلباسها البحري الأخضر الناعم الرقيق.

وكان يكفيها ان تضرب بيدها أكتاف المحتشدين ليفتحوا لها الطريق وهم لا يرونها، فقد أفسحت الحشود لعروق الطريق في سيرها نحو المنصة حتى صعدت درجاتها، ووقفت تنظر إلى الناس ورجال الأمن حتى حضر الزعيم في عربته وحوله جنوده بأسلحتهم المرفوعة، وأحاطوا بالمنصة بسرعة رهيبة، ثم صعد الزعيم بخطوات ثابتة قاسية إلى المنصة، والتفت إلى الحشود وقال:

"يا أهل ذمار الأخيار الأطهار، يا أهلي وعشيرتي وربعي، يا سند الحق، يا سر الخميرة، يا بذار القمح والحب والخير!

فصاحت عروق من تحت الطاقية: لو كنت تحبهم ما بنيت لهم هذه المنصة ؟

ثم خلعت الطاقية وحملتها في يدها متلألئة براقة؛ فصاحت الجموع بصوت واحد مليء بالدهشة: عروق !

ثم لبستها، ثم خلعتها، وكررت الأمر أكثر من مرة والحشود تغرق في دهشة سحرية أوقفت القلوب عن الخفقان، وصارت الحشود تطلق من أفواههها أصوات الدهشة، وفتحت عيونها على أتساعها وآذانها لتستمع إلى ما ستقول هذه الفتاة غير المرئية.

"أيها الناس يا أبناء البحر والشاطئ، يا حملة راية الحياة والشمس، أنا عروق التي دخلت الغرفة الحمراء، الغرفة التي تأكل راحتكم وتتقاسم معكم الحياة، الغرفة التي امتصت منكم أرواح أيامكم. أنا التي دخلتها، وما وجدت فيها غير لباس الخوف والقهر والاستبداد، كانت خاوية خالية فارغة لا حياة فيها تمتلئ عيونها بمشاهد الخوف التي تنبض أمامها، وأنا تكفلت بفقء عينيها وقطع مسلسل نبضها في أيامنا، يا أهل ذمار الأحرار، يا أهل العزيمة وحملة النار، يا سقاة المجد وحملة مشاعل الحرية ما لكم لا تنظرون، ما لكم لا تتدبرون.

حاولت مجموعة من رجال الزعيم الوصول إلى المنصة لاعتقال عروق لكن الحشود وقفت أمامها سدا منيعا.

أم أنتم على قلوب أقفالها، وعلى استسلام مريح، أقول لكم: إن سبب ما أنتم فيه هو ذلك الذي يسكن هناك، وأشارت إلى قصر الزعيم ".

كانت أم عروق بين الحشود ومعها ملك الصغيرة التي ظلت تلوح لعروق من بعيد وهي تقول لها" يا عروق أنا أحبك ".

وفي زاوية في الشارع الرئيس مطلة على المنصة وقف جذور بقلق وارتباك إلى جانب مجموعة من الرجال والنساء، وعندما قالت عروق الزعيم جوَّعكم.

همس رجل بأذن زوجته: نعم جوَّعنا فنحن منذ يومين لا نجد في بيتنا ما نأكله.

وقال آخر بصوت رقيق: حياتنا كلها صارت أياما له: يوم الفتح، ويوم الحب، ويوم الرجل، ويوم المرأة ويوم الإغلاق، ويوم اللعب، ويوم الفتح، ويوم...

وعندما قالت عروق إن الزعيم حرم أهل الجزيرة من السكن الآمن المريح، وأن شباب الجزيرة لا يجدون مكاناً يسكنون فيه بعد أن صادر الأرض وصارت باسمه.

قالت امرأة بصوت جهوري: حفرنا لابننا تحت الدار ليتزوج.

وقال آخر: ونحن لم يسمح لنا بالبناء، ولن يسمح حتى لو وجدنا مكانا نبني فيه؛ فالموافقات على البناء صعبة بل مستحيلة.

وعندما قالت عروق إن حياتي تحت هذه الطاقية تشبه حياتكم؛ فأنتم تخفون مشاعركم، وأنا أخفي جسدي.

قالت امرأة: صدقت هذه الصبية، فنحن لا نطيق الزعيم، ونكره جنوده، ونخفي هذا الحقد في قلوبنا !

ولم تكمل عروق خطبتها، فقد لطمها الزعيم بظاهر يده، وقال وهو يرفع يده بثبات:

هذه التي أمامكم هي السبب في هذا العذاب الذي تعيشونه، والعذاب الذي عشتموه، وبقاؤها بيننا سيقلب حياتكم إلى جحيم، لأنها فتحت الغرفة الحمراء!

ارتفعت همهمات وأصوات متداخلة تلفها الفوضى، فأكمل الزعيم: نعم، يا أهل ذمار، لقد دخلتها فجلبت إلى الجزيرة اللعنة والريح السموم.

فقالت عروق: اللعنة الحقيقية هي أنت، فما وجدت في تلك الغرفة غير عينيك ولسانك وأذنيك، أنت اللعنة الحقيقية بقراراتك وقوانينك وأدواتك المسلحة ومسامير كرسيك !

فلطمها الزعيم لطمة قوية على وجهها أسالت دمها، فصاحت أمها باكية "عروق"!

ودمعت أعين نسائية كثيرة.

ثم التفت الزعيم إلى الصيادين وقال: ألا ترون معي،...؟ ومنذ أن دخلت هذه اللعينة الغرفة انقلبت حياتكم...والذبابن والجراد، والصراصير، والزلزلة الأولى، والزلزلة الثانية، والرائحة القاتلة...

فقالت عروق: ومسلسل الاختفاءات المدبّر أيها الهبر، وحوداث القتل... !؟

لم يسمح الزعيم لعروق بإكمال جملتها فقد ضربها بظاهر يده ضربة شجّت وجهها، وأوقعتها على الأرض، ثم ركلها بقدمه فصاحت أمها متوجعة، وبكت نسوة من الألم، وحزن بعض الرجال.

ثم التفتَ إلى الحشود وقال: واليوم وقعت هذه المجرمة في يدي، وستحاكم محاكمة عادلة تليق بخائنة؛ فهمهمت أفواه كثيرة، وتدحرجت نحو الجسد الملقى على المنصة عيون كثيرة...

وقال بصوت حازم آمر: أيها الجنود، اقتلوها!اقتلوا هذه الخائنة !

فصاحت عروق: من يقتات على دم شعبه هو الخائن، من يأكل أعمارهم، وأسماءهم، وأموالهم هو الخائن، من يصادر أحلامهم، ويسحق أمنياتهم، ويسّخرهم لخدمته وللهتاف باسمه هو الخائن، وأنت الخائن الظالم الغاشم، وستلقى ما تستحق لاستبدالك أيامك بأعمارهم.

حاول جنود الزعيم الإمساك بها لكن أهل الجزيرة منعوهم، ولما رأى الزعيم ذلك قام إليها ولطمها لطمة قوية أخرى أوقعتها على الأرض، وطلب من جنوده مرة أخرى أن يقبضوا عليها، فلبست الطاقية وزحفت تحت ستارها بعيدا عنه وعنهم، وحاولت النهوض وهي تراقب عيني أختها ملك، ويدها الملوحة لها بالحب والحنان والخير، ثم وقفت بقوة وخلعت الطاقية وشدت عليها بأصابعها وقالت: هذه كانت أداته لكشف أسراركم والتنصت إلى نبضكم، لقد كان هذا الهبر يدخل معكم إلى أحضان أمهاتكم وزوجاتكم، ويسير معكم إلى جامعاتكم ومدارسكم، ويأكل معكم على موائدكم، كان يشارككم ما ترون، وما تسمعون، وما تقولون وما تكتبون، كان ظلكم الذي يعرف كيف يأكل ما يريد منكم...

ورفعت الطاقية بيدها، ثم أشعلت النار بها وهي تقول" الموت للظالمين"، فتوهجت المنصة وأبرقت السماء وأرعدت، وانتشرت النيران في كل مكان، وغطّت السّاحة سحابة كثيفة من الدخان والنار والأصوات والحركات العشوائية المتلاطمة...

المحتويات

يوم النصيحة 7
صحيفة الاقتطاع 9
اليوم المُغلق 10
همهمات 14
يوم آخر 17
يوم الخنق 25
دكانة أبي عروق 34
الاعتقال 40
الغرفة الحمراء 42
لا 44
يوم التخلي 46
الغرفة الحمراء 52
يوم النسيان 53
يوم الحلم 56
يوم العراف 61
الخطة الخمسية 69
ساعة حرة 72
جداريات ذمار 86
حديث الروح 89
حديث النفس 91
رسالة إلى صابرة 99
إلى حبيبها 102
اختفاءات 104

تقرير 112
غياب الإحصاءات 113
سباعيات 115
حركشات 121
البحث عن اللا شيء 131
شائعات 134
يوم الأرض العليا 137
يوم البوق 142
يوم الجراد 145
يوم الأم 146
يوم التعارف 150
يوم الفقد 155
معلقة المتمرد 159
يوم الصراصير الثاني 161
يوم اللعب 168
يوم الموت 174
يوم المنصة 177